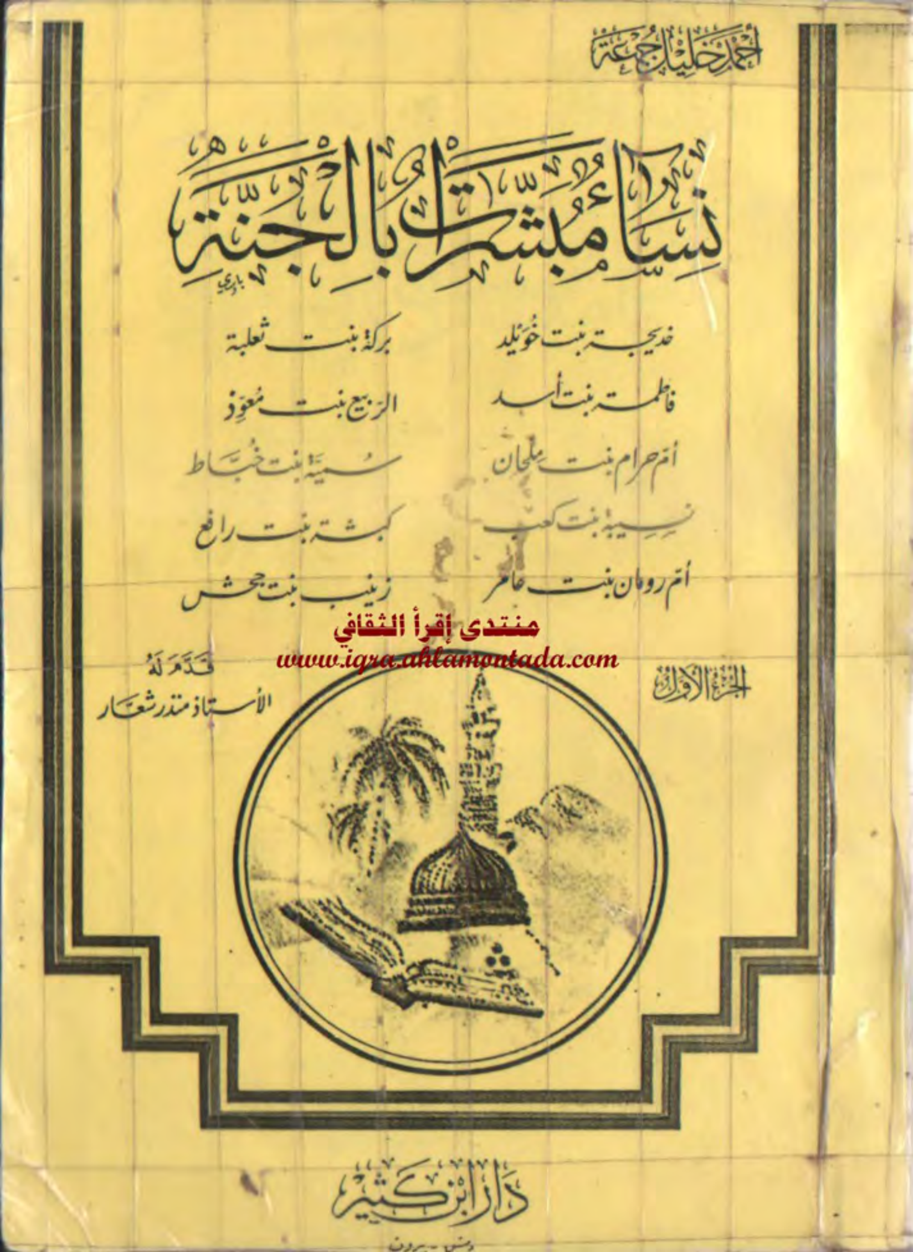

أحمد خليل جمعة
نساء مبشرات بالجنة
خديجة بنت خويلد
بركة بنت ثعلبة
فاطمة بنت أسد
الربيع بنت معوذ
أم حرام بنت ملحان
سمية بنت خباط
نسيبة بنت كعب
كبشة بنت رافع
أم رومان بنت عامر
زينب بنت جحش
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
قدم له
الأستاذ منذر شعار
الجزء الأول
دار ابن كثير

أحمد خليل جمعة



خديجة بنت خويلد	بركة بنت ثعلبة
فاطمة بنت أسد	الربيع بنت معوذ
أم حرام بنت ملحان	سمية بنت خياط
نسيبة بنت كعب	كبشة بنت رافع
أم رومان بنت عامر	زينب بنت جحش

الجزء الأول

قدّم له

الأستاذ منذر شعّار



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم الأستاذ منذر شعار

الحمد لله والصلاة على نبيه وآله

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثاني للمؤلف؛ في هذا الباب الكريم الجميل، وكان الأول في الصحابة المبشَّرين بالجنة، وهذا في المبشَّرات بها، رضي الله عنهم أجمعين. وإن العمل في هذا الثاني لأصعب؛ لعدم شهرة المبشَّرات عند الناس، في هذا العصر خاصّة، ولعسر التتبع في المراجع، ويستوي الكتابان في حرص المؤلف على الصحيح غير الضعيف، من حديث شريف، وتاريخ حصيف. لكنَّ السَّرد - هنا - يقتضي - ولا بد - رواءً أدبياً بحَسَبِ الخُطور، وشجىً نبيلاً يرقّق ستور السطور، مما يجعل هذا الكتاب كسابقه، حقيقاً أن يُقتنى فيُجْتنى، ويُستحلى فيُستجلى، إذا قرأه القارىء أضاء، واختالت حوله «الأحزاب» و «النساء».

والله القصد وهو ولي التوفيق

منذر شعار

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة المؤلِّف

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً وافراً، يوافي نِعَمه، ويدفع نِقَمه، ويكافىء مزيده.

والصلاة والسلام على مَن لا نبيَّ بعده، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن استنَّ بِسُنَّته الغرَّاء ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن التأمُّل في ثنايا التاريخ الإسلامي يكشف لقطات رائعة لأناسٍ آمنوا بالله تعالى، وتمسَّكوا بِسُنَّة المصطفى ﷺ في القول والفعل والحال، فانداح سلوكهم في رحاب الحياة فيَّاضاً بالخير والإخلاص والإيثار، فبنوا بإيمانهم معاقل النور، وشيَّدوا قلاع الاستقامة، وهم يغذُّون السَّير إلى الله ورسوله ﷺ.

وقد أشار النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى طائفةٍ من أولئك الصحابة العظام، الذين أدركوا ما عليهم، وعرفوا أنهم مخلوقون للعبادة، فبقدر صلابتهم في دينهم، وتمسّكهم

بعقيدتهم، فإن الله عزّ وجلّ يُهيّىء لهم أسباب الخير ومقوّمات النجاح، ويفتح أمامهم سُبُل الفَضْل العميم.

وقد رأيتُ أن أجمع طاقاتٍ مُنوَّرة، يفوح شذاها، وينتشر أريج عبقها، في كل مكان، يُعطِّر الأرجاء، ويدفع إلى التمثّل الحسن في المواصفات والمعايير التي التزمها ضيوف كتابنا هذا، فكانوا بحقٍّ خير القرون، وكانوا بصدقٍ أفضل الناس، لما التزموا به وعاشوا من أجله.

وكنتُ في كتاب سابق قد تحدَّثتُ عن ثلَّةٍ من الرجال المبشَّرين بالجنة على لسان النبي ﷺ، إذ شهد لهم بالإيمان، وخَبَرَ بواطن نفوسهم، وأدرك ما في قرار ضمائرهم؛ من إيمان وصَبْر ويقين وسخاء وتضحية وفداء.... فكان أن وقَّع ﷺ لهم شهاداتٍ تخوّلهم دخولَ الجنَّة بإذن الله عزّ وجلّ.

ونحن اليوم نحيا مع طائفة أخرى من النساء المبشَّرات بالجنة، مُبْرِزاً دورهنّ الرائد عبر الوقائع والأحداث التي جرت في عصر النبوة المعطاء، وذلك بقصد رسم الصورة المعبِّرة، والإطار العام لكل شخصية مع كَشْف الفوائد، والدروس المستفادة، والعِبَر الهادفة، وصولاً إلى الحِكَمْ المبثوثة في ثنايا العَرْض لكل شخصية، ومن ثمّ نجلو الأسوةَ الحسنة، ونوضّح الاقتداء الصالح بهن؛ فيما عُرِفْنَ به وأُثِرَ عنهنَّ.

وقد سجّلتُ حياة كل امرأة، وما اتصفت به من خُلُق قويم، ومشاعر مفعمة بالإيمان واليقين الصادق، مُعرِّجاً على أهم الأحداث في حياتها، وما تتمتع به من مكانة مرموقة، وما يتّصل بها من أخبار تومض، وأحداث تضيء.

وحاولتُ أن أسجّل حياة أولئك الطاهرات المبشَّرات بالجنة بأسلوب واضح مشرق، مع التركيز في العبارة، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال العلماء وشهاداتهم، لتتّضح الصورة، وتنكشف الأبعاد للأطر العامة، مستعيناً في عملي هذا بأمهات الكتب التاريخية والمصادر الحديثية وأسباب النزول وكتب السيرة النبوية مع طائفة من التفاسير، وذلك للوقوف على الشخصية بوضوح وبيان وجلاء.

وكانت الرحلة شيّقة جميلة رائعة، فتمَّ الحديثُ عن عشر نساء مبشَّرات بالجنة، هن:

- أم المؤمنين خديجة بنت خويلد.
- فاطمة بنت أسد.
- أم حرام بنت مِلْحان.
- نَسيبة بنت كعب أم عمارة.
- أم رومان بنت عامر.
- بركة بنت ثَعْلبة أم أيمن.
- الربيع بنت معوِّذ الأنصارية.

ـ سُميَّة بنت خُبَّاط.

ـ كبشة بنت رافع، أم سعد بن معاذ.

ـ أم المؤمنين زينب بنت جحش.

هذا في الجزء الأول، أما في الجزء الثاني فهناك عشر أخريات، رضي الله عنهن وأرضاهن.

ثم إني أسأل الله عزّ وجلّ ان يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبَّله مني، ويجعل لي ثوابه في صحيفة أعمالي يوم الدين، يوم نلقاه سبحانه وهو راضٍ عنَّا بفضله ورحمته.

والحمد لله رب العالمين.

أحمد جمعة

نساء مُبشَّرات بالجنة

(١)

أم المؤمنين
خديجة بنت خويلد
رضي الله عنها

أم المؤمنين
خديجةُ بِنتُ خُوَيْلد
رضي الله عنها

* «أتى جبريلُ النَّبيَّ صَلى الله عليهِ وسلم فقال: أقرىء خديجة مِنَ اللهِ ومنّي السَّلام، وبشّرها ببيتٍ في الجنَّةِ منْ قصَبٍ لا صَخَب فيه ولا نَصَب».
* «أفضَلُ نِساءِ أهلِ الجنَّة خديجةُ بنتُ خويلد. . . . .»

حديث شريف

أُمُّ المؤمنينَ خَديجَةُ بنتُ خُويلد

رضي الله عنها

الطَّاهرةُ المُباركةُ:

* في رحاب الطُّهْر والبركة، وفي ثنايا الصَّفاء والنَّقاءِ، نعيشُ سعداءَ في ظلالِ سيرة أمِّنا الطَّاهرة خديجة بنت خُويلد ابن أسد القرشية الأسدية، زوج سيِّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ. ومَنْ مِنا يستطيع أنْ يوفيَ أمّ المؤمنين خديجة حقّها أو جزءاً منه؟! ولكنا نحاول أنْ نلمسّ البركةَ والخير باقتطافِ عناقيدَ مباركةٍ من حياتها الفيّاضة بالعطاء.

* نشأت خديجةُ على التَّخلُّق بالفضائل والتَّحلِّي بالآداب، واتَّصفتْ بالعفة والشَّرف والكمال، حتى عُرِفتْ بلقب «الطاهرة»[1] بين نساء مكةَ في زمانها.

* خديجةُ... السَّيدةُ الطَّاهرةُ.. إنَّ هذا لشرفٌ عظيم أنْ تحظىٰ خديجة بهذا اللقب المِعْطَار المبارك! وذلك في

---

(١) انظر في هذا أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧)، والإصابة (٤/٢٧٣)، والاستيعاب (٤/٢٧١).

عصرٍ تموجُ فيه أدرانُ الجاهلية موجاً، وتضع من قيمة المرأة.

* في أمِّ القرىٰ كانت ولادة الطّاهرة خديجة سنة (٦٨) قبل الهجرة النّبوية الشّريفة، وكان ذلك قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة تقريباً[١].

وأمُّها فاطمة بنت زائدة بن الأصم قرشية من بني عامر بن لؤي، أمّا أبوها فهو خُويلد بنُ أسد بنِ عبد العزى؛ من أشراف قريش، وقد مات يوم الفجار.

* كانت خديجةُ زوجاً لأبي هالة بن زرارة التّميمي[٢] فمات عنها، ثم خلف عليها عتيق بن عابد المخزومي[٣]، ثم تزوَّجها النّبيُّ الكريم ﷺ.

* وعندما ارتبطتْ خديجةُ بالنّبي الكريم ﷺ، سَطَعَ نجمُها وبانَ فضلُها، وسادت نساء مكةَ كلّهن، بل نساء الدُّنيا جميعاً، و «حسبك مِنْ نساءِ العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون»[٤].

* * *

(١) هذه السنة توافق عام (٥٥٦) من الميلاد.

(٢) الاشتقاق (ص ١٤٢ و ٢٠٨).

(٣) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧).

(٤) الحديث أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك، انظر جامع الأصول (١٢٥/٩).

الطَّاهِرةُ والمكانَةُ العُلْيَا:

* كانتِ الطاهرةُ خديجة مثلاً رائعاً بين نساء مكّةَ في المكانة والشَّرف والمال، ولها تجارةٌ واسعةٌ، وتستأجرُ مِنَ الرِّجال في مالها ممن تثق بهم ليتجروا لها، وتتّفِق معهم على نصيبٍ مِنَ الأجر تدفعه لهم، في تلك الأثناء كانت الطَّاهرةُ خديجة تعرفُ الفتى الأمينَ محمَّد بنَ عبد الله الذي يلتقي نسبه مع نسبها في قصي بن كلاب[1]. وعُرِفَ عن خديجةَ أنَّها صاحبة نظرة ثاقبة، وفراسة صحيحة، فكانت ترىٰ محمّداً وتسمعُ أخباره العطرة من الغادي والرائـح.

* وكانت أخلاقُ النَّبي الكريم عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وصفاته الجميلة تُعطِّرُ الدّنيا وتدخل القلوب على اختـلاف أصحابها، ولهذا رغبتْ في أنْ يتجرَ لها بمالها، فأرسلتْ إليه وقالت:

إنَّه دعاني إلى البعثةِ إليكَ ما بلغني مِنْ صدق حديثك وعظَمِ أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعْفَ ما أعطي رجلاً مِنْ قومك.

فقبل النَّبيُّ ﷺ منها ذلك، ولما سمع أبو طالب بأعطيةِ الطَّاهرة خديجةَ، قال لرسول الله ﷺ: هذا رزقٌ ساقَهُ اللهُ إليك.

* * *

(١) قال الحافظ ابن حجر عن الطاهرة خديجة: وهي من أقرب نسائه ﷺ إليه في النسب.

الطَّاهرةُ الخيِّرةُ:

* ذكر أبو جعفر الطَّبري وابنُ كثير وابنُ سيِّد النَّاس عن معمر، عن الإمام ابن شهاب الزُّهري؛ أنَّه قال: لما استوىٰ رسول الله ﷺ، وبلغ أشدَّه، وليس له كثير مال، استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حُبَاشة ـ سوق بتهامة ـ واستأجرتْ معه رجلًا آخرَ مِنْ قريش، فقال رسول الله ﷺ وهو يحدِّث عنها: «ما رأيتُ مِنْ صاحبة أجير خيراً من خديجةَ، ما كُنا نرجعُ أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفةً مِنْ طعامٍ تخبئُه لنا».

* لمست الطَّاهرةُ خديجة صِدْقَ محمَّد ﷺ وأمانته وكرم أخلاقه، فكانت تجزلُ له العطاء، ولما بلغ سيِّدنا رسول الله خمساً وعشرينَ سنة، سافر بتجارة لها إلى الشَّام مع غلامها ميسرة، وفي الشَّام باع ﷺ سلعته واشترى ما أراد، وربح ضِعْفَ ما كانت تربح خديجة، وقفل راجعاً نحو البلد الأمين مكةَ، فأدَّىٰ لها ما عليه في أمانةٍ تامة، ونُبْلٍ عظيم، وقد حفظ الله سبحانه رسولَه ﷺ وحاطه برعايته؛ حتى كانت هذه السَّفرةُ بما كان فيها من الخير والبركة، ذات أثر مبارك في حياة محمَّد ﷺ.

* وفي مكةَ انطلق ميسرةُ يحدِّثُ بما رأىٰ من سيِّدنا محمد ﷺ من كرم الخلق وحُسْنِ الصُّحبة وعظَمِ الأمانة، بل

حدَّثَ بما رآه من إرهاصات النُّبوة التي لمسها وعاينها، وما أكْثَرَ ما رأىٰ في تلك الرِّحلة الجميلة من خصائصَ كثيرة للنَّبي ﷺ، وأدلىٰ ميسرة أيضاً بشهادته الصادقة المباركة إلى خديجة، فسُرَّتْ بأمانته وصدقه، وما نالها من بركةٍ وربح بسببه ﷺ، وكان الله سبحانه وتعالى قد كَتَبَ لها الكرامة وأراد بها الخير حيث ألقى في نفسها أمنية كريمة مباركة جعلتها سعيدة في الدَّارين.

* * *

الطَّاهِرَة والزَّواجُ المُبَارَكُ:

* كان السَّاداتُ والرؤساءُ في مكةَ يحرصون على الزَّواج من خديجةَ، فتأبىٰ ذلك عليهم، وتردّهم جميعاً، ولكنَّها وجدت ما تنشدُه وما تبغيه في سيِّدنا محمد ﷺ، وهنا أفضتْ عمَّا يدور في نفسها إلى صديقتها «نُفَيسة بنت منية»[1] فذهبتْ نُفَيسةُ إلى النَّبي الكريم ﷺ وكلمته أنْ يتزوَّجَ الطَّاهرة خديجة، وقالت: يا محمد ما يمنعُكَ أنْ تزَّوجَ؟.

فقال: «ما بيدي ما أتزوجُ به».

---

(١) نفيسة ـ بالتصغير ـ ومنية نسبة إلى أمها، وفي بعض المصادر: بنت أمية وهو أبوها، وهي أخت الصحابي الجليل المشهور يعلى بن أمية ـ رضي الله عنه ـ.

قالت: فإنْ كُفيتَ ودُعيتَ إلىٰ الجمال والمال والشَّرف والكفاءة ألا تُجيب؟.

قال: «فمَنْ هي»؟.

قالت: خديجةُ.

قال: «وكيف لي بذلك»؟.

قالت: عليَّ.

قال: «فأنا أفعلُ».

ورجعت نُفَيسةُ إلى الطّاهرة خديجة تَحمل خبر نجاحها في مهمتها، وزفَّتْ إليها نبأ موافقة محمّد ﷺ بالزّواج، فارسلتِ الطّاهرةُ خديجة إلى عمِّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر، وجاء رسولُ الله ﷺ إلى بيتِ خديجةَ في آل عبد المطلب، وفي مقدمتهم عمُّه حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وعمّه أبو طالب، وكان في استقبالهم عمّ الطّاهرةِ خديجة، وابن عمِّها ورقة بن نَوفل، وقام أبو طالب خطيباً، وألقى خطبةً رائعةً نقتطفُ منها فِقْراتٍ كاشفةً، فكان مما قال:

الحمدُ لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزَرْعِ إسماعيل، .. .. .. وجعلنا حضنَةَ بيته وسُوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً، ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يُوزنُ به رجلٌ مِنْ قريش شرفاً ونبلاً وفَضْلاً إلا رجح به، .. .. .. ومحمد مَنْ عرفتم قرابته.. .. .. وله في

خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتُم من الصّداق ـ المهر ـ فعليَّ.

وافق عمُّها عمرو بن أسد وكان شيخاً كبيراً[1] فقال: هو الفحلُ لا يُقْدحُ أنفُه[2]:

* وتزوَّج النَّبي الكريم ﷺ الطَّاهرة خديجة، وأصدقها عشرينَ بكْرة، ونحر وأطعمَ النَّاس، وقد أشار البُوصِيْري ـ رحمه الله ـ إلى هذا عندما قال:

ورأَتْــه خــديجــة والتُّقــى والـزّهـ
دُ فـيــه سـجـيــةٌ والــحـيــاءُ
وأتــاهــا أنَّ الغمــامــةَ والــسَّــر
حَ[3] اظـلَّتــه مـنـهـمـا أفـيـاءُ
وأحــاديــثُ أنَّ وعــدَ رســول الـلـ
ـه بــالبعث حـان منــه الـوفــاءُ
فَـدَعَــتْــهُ إلى الــزَّواج ومــا أحْـ
سَـنَ أنْ يبـلغَ المـنى الأذكيـاءُ

---

(١) انظر كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٩٢).

(٢) هذامثل يضرب للرجل الكفء الكريم، والفحل الذكر من الإبل، وكان العرب إذا وجدوا الفحل غير كريم ضربوا أنفه ومنعوه عن الناقة، وإن كان كريماً تركوه، فذهب مثلاً في العرب، وقصد عمّ خديجة إلى أن محمداً منهم وهو كفء كريم لا يُردّ.

(٣) «والســرح»: الشجر الكبير.

* كانتِ الطَّاهرةُ خديجة ـ رضي الله عنها ـ بنت أربعين في سنِّ اكتمال الأمومة، أمّا محمد ﷺ ففي سنِّ اكتمالِ الشَّباب ابن خمس وعشرين سنة.

* وفي هذا الزَّواج المبارك كانت الطَّاهرة خديجةُ هي الزَّوجةُ الوفية في حبِّها، وهي الأمُّ الـرؤوم في حنانها وعطفها وبرِّها ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

الطَّاهِرةُ الوَدُودُ الولُودُ:

* كان هذا الزَّواج زواجاً ميموناً سعيداً، فمحمّد ﷺ نِعْمَ الزّوج، والطَّاهرة خديجة نِعْم الزّوجة الوفيّة، وقد عاشا معاً زوجين هانئين، وسَرَتْ بينهمـا الألفةُ، وتـوطّدت عـواملُ الاستقرار، وضربتْ خديجة أروعَ الأمثلة في الصَّلاح وفي الإيثار والكرم، وذلك عندما شعرت أنَّ زوجها عليه الصَّلاة والسَّلام يحبُّ زيدَ بن حارثة[1] مولاها فوهبته له، فازدادت بذلك منزلتها في نفسه ﷺ.

* ولما كفل رسول الله ﷺ ابنَ عمه عليّ بن أبي طالب، وَجَدَ عليٌّ عند الطّاهرة خديجة أمّاً عطوفاً، وقلباً حـانياً،

---

(١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل سيدنا زيد بن حارثة في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول.

ومعاملةً طيِّبة. وقد أكمل اللهُ هذه السَّعادة الزَّوجيةَ بالأبناء؛ فولدت له القاسم ـ وبه كان يُكنى أبا القاسم ـ ثم ولدت له زينب ورقية وفاطمة وأمّ كلثوم، وكان ذلك قبل النّبوة، وولدت له في الإسلام عبد الله فسُمي الطيّب والطّاهر، وكان بين كل ولدين سنة، وكانت تسترضعُ لهم وتهيىء ذلك قبل أنْ تلد.

وقد ذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أولادَ رسول الله ﷺ مِنَ الطاهرة الولود خديجة فقال: ولدت خديجةُ لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة، القاسم وعبد الله، وفاطمة وأم كلثوم وزينب ورقية[1]. أما ابنه إبراهيم فهو من مارية القبطية ـ رضي الله عنها ـ ومات بنوه كلهم في صغرهم. أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، فرقية وأمّ كلثوم تزوجتا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ، وزينب زوجة أبي العاص بن الرَّبيع بن عبد شمس، وفاطمة زوجة عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ[2].

وقد أدركتهُن الوفاة في حياة النّبي ﷺ إلا ابنته فاطمة، فقد توفيت بعده بستة أشهر.

* * *

(١) انظر في هذا دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٧٠).

(٢) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٦٦)، والفصول لابن كثير (ص ٢٤٢).

الطّاهرةُ ومَطْلَعِ الفَجْر:

* امتازَ النَّبي الكريم ﷺ في قومـه بشمائلَ كريمةٍ فَاقَهُم فيها جميعاً، حتى أطلقوا عليه لقب «الأمين» لِمَا جُمِعَ فيه من الأحوال الصَّالحـة والصِّفاتِ المُـرْضية، وجَمَعَتِ الـطَّاهرةُ خديجة شمائله هذه بقولها له: إنَّك لتصلُ الرَّحم، وتحمل الكلّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحق[1].

* نعم فقد عَرَفَ أهلُ مكة صفات محمّد ﷺ، وكانوا يرضون بقضائه فيهم إذا ما ثارت خلافات فيما بينهم، ولكنَّه ﷺ ينكر ما هم عليه مِنَ الضَّلال وعبادة الأوثان. ولما قاربت سِنّه الأربعين حُبِّبَ إليه الخلاءُ في غار حراء ـ قرب مكة ـ، فكان يخلو به، ويقضي وقته في العبادة والتفكر في الكون وفي مبدعه، ويمكث فيه الليالي ذوات العدد.

* وكانتِ الطّاهرةُ خديجةُ إذا نهضتْ في الصَّباح الباكرِ، تتفقَّـد زوجها عليه الصَّلاة والسَّلام فلا تجده، فتعرفُ أنَّه في خلوته، فلا تسأله عن شيء، وذلك لكونها عاقلة لبيبة، وترى من أحواله ما لا يراه غيرها.

* كانت الرؤيا الصَّادقة أول ما أشرق عليه من نـور النّبوة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصُّبحِ، وكـانت

---

(١) الحديث في صحيح البخاري (١/٥).

تساوره المخاوف، فكان يفضي إلى زوجه الطّاهرةِ العاقلة اللبيبة بمخاوفه ويقول لها: «إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداء، وقد خشيتُ ـ والله ـ أنْ يكونَ لهذا أمر. .»، فتطمئنه الطاهرةُ خديجة وتقول له: «معاذ الله! ما كان الله ليفعل ذلك بك، فواللهِ إنّك لتؤدي الأمانة وتصلُ الرحم وتصدُقُ الحديث».

* كانت كلماتُ السَّيدة الطاهرةُ خديجة نوعاً من فِراسَةِ الإلهام، وبرداً وسلاماً على رسول الله ﷺ، خفّفتْ بها عنه ما شعر به من آثار المفاجأةِ الرَّهيبة، ثمَّ إنَّ كلمات خديجة النّورانية نابعةً مِنْ معرفتها أخلاقَ رسولِ الله ﷺ التي خبرتها فيه بتجاربها وفراستها في جميع المجالات، ناهيك بما لمحمد ﷺ في مجتمعه مِنَ الإكبار وحُسْن الصِّيت وجمال الحديث.

* * *

الطّاهِرَةُ العَاقِلةُ:

* لما نزلَ جبريلُ بقولِ الله سبحانه وتعالى: ﴿ اقرأ باسمِ ربك الذي خلق * خلقَ الإنسانَ مِنْ عَلَق * اقرأ وربُّك الأكرمُ * الذي علَّم بالقلمِ * علَّم الإنسانَ ما لمْ يعلم ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، كان للطّاهرةِ العاقلة دورٌ مباركٌ، ولنترك عائشةَ أمَّ المؤمنين تروي لنا موقفَ الطّاهرة خديجة،

وبشارتها رسول الله ﷺ بالنبُّوة، وتثبيتها له فتقول:

«. . . . . فرجعَ بها - أي بسورة العلق - رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجةَ بنتِ خويلد - رضي الله عنها - فقال: زمِّلوني زمِّلوني، فَزَمَّلُوه حتى ذهب عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبر: لقـد خشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يُخْزِيَكَ اللهُ أبداً، إنَّك لتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضَّيفِ، وتُعِينُ على نوائبِ الحق. فانطلقت به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفل بنِ أسد بن عبد العُزَّى - ابنَ عم خديجة - وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العبراني، فيكتبُ مِنَ الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أنْ يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ.

فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟.

فأخبره رسولُ الله ﷺ خَبَرَ ما رأىٰ.

فقال له ورقةُ: هذا النّاموسُ الذي نَزَّلَ اللّهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حياً إذ يُخْرِجُك قومُك.

فقال رسولُ الله ﷺ: أَوَ مُخْرِجيَّ هم؟.

قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودي،

وإنْ يدركني يومُك أَنصرُك نصراً مُؤَزَّراً. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وفتر الوحيُ»[1].

* وقد رُوي أنَّ ورقة قال يخاطبُ الطَّاهرةَ خديجة في ذلك:

فإنْ يَكُ حقاً يا خديجةُ فاعلمي
حديثك إيانا فأحمد مرسلُ
وجبريل يأتيه وميكال معهما
مِنَ الله روح يشرحُ الصَّدر منزل[2]

* * *

الطَّاهِرَة الصِّدِّيقَةُ الأُولَى:

* في حَلبةِ التَّسابق الإيماني، وفي ميدان السَّبْقِ على الإسلام، كانتِ الطَّاهرةُ خديجةُ ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ الفائزة بالدَّرجة العُليا برتبة صِدِّيقة المؤمنات الأولى، فأكرمْ بهذا اللقب وأعظمْ به؟!.

---

(١) الحديث صحيح في البخاري (١/٥ و٦).
«الكل»: هو من لا يستقلّ بأمره. «الجَذَع»: الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شاباً ليكون أمكن لنصره.

(٢) انظر البداية والنهاية (٣/١١)، وكتاب منح المدح (ص ٣٢٨).

* فالطَّاهرةُ خديجةُ ـ رضوان الله عليها ـ أولُ مَنْ آمنَ وصدَّق رسولَ الله ﷺ، وأولُ مَنْ سمعِ ما تنزَّل عليه من الذِّكرِ الحكيم منْ فمِهِ الشَّريف عليه الصَّلاةُ والسَّلام.

* وإسلامُ الطَّاهرةِ خديجة ـ رضي الله عنه ـ كان إسلام الفطرة النَّقية الصَّافية الزَّاكية المتطلعة بسواطع الإلهام إلى المستقبل النُّوراني الصَّادقِ، فقد رزقها اللهُ عقلًا كبيراً وفطنةً مباركة نادرةَ الوجودِ في تاريخ النِّساء.

* وللطَّاهرة الصِّديقة الأولى ـ رضي الله عنها ـ سوابق مباركة في مطالع إيمانها، لم تكن لأحد مطلقاً، وفضائل انفردتْ فيها فلا يلحقها فيها لاحق، وكيف تُلْحَقُ وقد حظيتْ بمكانة عظيمةٍ في نفس رسول الله ﷺ، حيثُ آمنت به حين كفرَ النَّاس، وصدَّقتْ به حين كذَّبَهُ النَّاس، وجادت بمالها وواسته بنفسها، ورزقه اللهُ منها الولد، رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّاهِرةُ وبيتُها المُبَارَكُ:

* مِنْ دار الطَّاهرةِ خديجة ـ رضي الله عنها ـ سطعَ نورُ الإسلام، ومنها أضاء الدُّنيا كلَّها، فلا عجبَ أنْ تكونَ هذه الدَّار دانيةَ القطوفِ، طيِّبة الثرى، مباركة الموضع، وممَّا يشيرُ إلى بركةِ الطَّاهرة خديجة، وبركة بيتها، أنَّ الطَّاهرةَ أمّ

المؤمنين خديجة وبناتِها مِنْ سيدنا رسول الله ﷺ كُنَّ أول النَّاس إسلاماً، بل إنَّ كلَّ مَنْ أظلَّهم سقفُ بيتها كانوا مِنَ السَّابقين الأولين إلى الإسلام، وكلُّنا يعرفُ أسبقية سيِّدنا علي ابن أبي طالب، وزيد بن حارثة ـ رضي الله عنهما ـ، وهما مِمَّنْ عاشا ضمن أسرة رسول الله ﷺ في بيت الطَّاهرة المبارك.

* وسَبْقُ هؤلاء الغرِّ الميامين إلى الإيمان بالله تعالى، والتَّصديق برسالة النَّبي الكريم ﷺ لدليلٌ على فطرتهم النَّقية التي اكتسبوها مِنْ سيِّدنا رسول الله ﷺ، ومنَ الطَّاهرة أمِّ المؤمنين خديجةَ ـ رضوان الله عليها ـ.

* ولِدارِ الطَّاهرة أمّ المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ مكانةٌ كبيرة، وأفضليةٌ مباركة، فقد ذكر المحبُّ الطَّبريُّ أنَّ دارَ خديجةَ ـ رضي الله عنها ـ أفضلُ الأماكنِ بمكةَ بعد المسجد الحرام ولا شك في ذلك[1] والله أعلم. ولعلَّ هذا يرجعُ لطولِ سكنىٰ النَّبي الكريم ﷺ، ونزول الوحي عليه فيها.

* وذكر الإمام الفاسي أنَّ الدورَ المباركةَ بمكةَ دارُ خديجةَ بنت خويلد أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، ففي هذه الدار ولدت فاطمة سيِّدة نساء العالمين هي وأخواتها، وذكر أنَّ النَّبيَّ الكريم ﷺ بنىٰ بخديجةَ فيها، وأنَّها توفيت فيها، ولم

---

(١) عن كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/٤٣٨).

يزل النَّبيُّ الكريمُ ﷺ ساكناً فيها حتى هاجر إلىٰ المدينة المنورة، فأخذها عقيلُ بن أبي طالب، ثم اشتراها معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة فجعلها مسجداً يُصلىٰ فيه[1].

* وفي دار الطَّاهرةِ خديجة يذكر الإمام الفاسي أيضاً أنَّ الدُّعاء يُستجاب فيها ليلةَ الجمعة، فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّاهرةُ البرَّةُ الوَصُوْلَةُ:

* قضتِ الطَّاهرةُ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ في كنَفِ رسول الله ﷺ مرحلةً تُقاربُ ربع قرن مِنَ الزَّمنِ، فكانت في حياتها المباركة معه أوفىٰ وأبرَّ زوجة لزوجها، كانت تشاركه مباهجه ومسرَّاته، وتتطلَّع إلى رضاه وسعادته، وتبرُّ مَن يحبُّهم لتزدادَ مكانة في نفسه ﷺ، وقد ظهر مِنْ برِّها وكرمها ما رفعها إلى مكانةٍ عاليةٍ أثيرة، فقد أصابتِ النَّاس سنة جَدبٍ بعد زواجها من رسول الله ﷺ، وفي هذه السَّنَةِ جاءتْ حليمةُ السَّعدية ـ مرضعته ﷺ ـ زائرة، فعادت من عنده؛ ومعها من مال الطَّاهرة خديجة بعيرٌ يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم.

* ووصل برُّ الطَّاهرةِ خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى أبعد من ذلك، حيث كانت ثُوَيبةُ أول مرضعة للنَّبي ﷺ تدخل

---

(١) المرجع السابق (١/٤٣٦).

على النَّبي الكريم بعد أنْ تزوَّج الطَّاهرة خديجة، فكانت تكرمُها وتصلُها وفاءً وكرماً لزوجها سيِّدنا رسول الله ﷺ، ولذلك كان النَّبي الكريم ﷺ يجلُّها ويقدِّرُها رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الطَّاهِرَة العَابِدَةُ:

* قال القائل:

وإذا حَلَّتِ الهدايةُ قلباً
نشطتْ في العبادةِ الأعضاءُ

* مكثتْ أمُّ المؤمنين خديجةُ ـ رضوان الله عليها ـ تُصلِّي مع النَّبي ﷺ الصَّلاة التي كانت وهي: ركعتان في الغداة، وركعتان في العشي، وذلك قبل أنْ تُفرضَ الصَّلوات الخمس في ليلة الإسراء.

* ذكر الإمام ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ قال: حَدَّثني بعض أهل العلم أنَّ الصَّلاة حين افترضتْ على رسول الله ﷺ، أتاه جبريل وهو بأعلىٰ مكة فَهَمَزَ له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرتْ منه عينٌ من ماء مزن، فتوضأ جبريل ومحمَّد عليهما السلام، ثم صلّىٰ ركعتين، وسجد أربع سجدات، ثم رجع النَّبي ﷺ، وقد أقرَّ الله عينه وطابت نفسُه وجاءه ما يحبُّ مِنَ الله سبحانه وتعالى، فأخذَ بيد خديجة حتى أتى بها

العين، فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وسجد أربع سجدات هو وخديجة، ثمّ كان هو وخديجة يُصلِّيان سرّاً.

* كانتِ الصَّلاةُ ـ بتلك الصّورة ـ آنذاك شيئاً غريباً عن المجتمع المكيّ وغيره لم يألفوه بعد، وفي حديث عفيف الكندي ـ أخي الأشعث بن قيس لأمّه وابن عمّه ـ ما يشيرُ إلىٰ ذلك قال:

* كان العبّاسُ بن عبد المطلب لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطرَ ويبيعه أيام الموسم، فبينا أنا عند العبّاسِ بِمنَىٰ، أتاهُ رجل مجتمع ـ بلغ أشدّه ـ فتوضأ فأسبغَ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأةٌ فتوضأت ثمّ قامت تصلي، ثم خرج غلامٌ قد رَاهَقَ فتوضأ ثم قام إلى جنبهِ يصلي، فقلتُ: ويحك يا عبّاس ما هذا الدّين؟.

قال: هذا دينُ محمد بن عبد الله ابن أخي يزعم أنَّ اللهَ بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابَعَهُ على دينه، وهذه امرأتُهُ خديجة قد تابعته على دينه.

قال عفيف بعد أنْ أسلم ورسخَ في الإسلام: يا ليتني كنتُ رابعاً[1].

* تلك صورة وضيئةٌ عن عبادة أمِّنا الطّاهرةِ ـ رضي الله

---

(١) انظر عيون الأثر (١/١١٦)، ومجمع الزوائد (٩/٢٢٢ و ٢٢٣)، والسيرة الحلبية (١/٤٣٦ و ٤٣٧)، وانظر كذلك طبقات ابن سعد (٨/١٧ و ١٨) بلفظ قريب.

عنها ـ طليعة السّابقين والسّابقات إلى الإسلام قاطبة وإلى الصّلاة أيضاً، تلك الصلة بين العبد ومولاه.

* وذكر ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ أنَّ الطّاهرةَ خديجة أمّ المؤمنين روتْ عن رسول الله ﷺ حديثاً واحداً ولم يُذكَر في الصّحاح[1].

* * *

الطّاهِرَة الصّابِرَةُ:

* ضربتِ الطّاهرةُ أمّ المؤمنين خديجة في الصّبر مثلاً شروداً في حياة النِّساء، وفازتْ بالنّجاحِ من جراء صبرها في الخطوات الأولى لسير الرّسالة النّبويةِ، فقد ذكر ابنُ إسحاق في السّيرِ والمغازي قال:

كانت خديجةُ أولَ مَنْ آمنَ بالله ورسوله وصدَّق بما جاء به، فخفَّفَ اللهُ بذلك عن رسول الله ﷺ، لا يسمع شيئاً يكرهه مِنْ رَدٍّ عليه وتكذيبٍ له فيحزنهُ ذلك إلا فرَّجَ الله عنه بها، إذا رجع إليها تُثبّته وتُخفِّفُ عنه، وتصدِّقُه وتهوِّنُ عليه أمْرَ النّاسِ رحمها الله[2]. وحالها كما قال القائل:

وهيَ لا تنثني عنِ الحقِّ صَبـراً
ودفــاعــاً عــن خــاتَمِ الأنـبيـاءِ

---

(١) المجتبى لابن الجوزي (ص ٩١).

(٢) السير والمغازي (ص ١٣٢).

* نَعم ـ عزيزي القارىء ـ فعندما نهضَ رسول الله ﷺ برسالته بشيراً ونذيراً، ودعا قومَه ليخرجهم من الظُّلمات إلى النـور، كذَّبوه وخَذَلُوه في دعوته، كانت الطَّاهرة الصَّـابرةُ بالمرصادِ لهذا الخذلان، وتفعل جاهدةً لتخفِّفَ عن رسول الله ﷺ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكنَّ قريشاً تمادت في طغيانها، وقاطعتْ بني هاشم مقاطعةً كاملةً ثلاث سنين، ودخلتِ الطَّاهرةُ أمُّ المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنهـا ـ حصار الشِّعْبِ مع رسول الله ﷺ.

* واشتدتِ الأزماتُ وتفاقمتِ الأحداثُ، واستشرى الأمر بين رسالة رسول الله ﷺ وبين الطغيـان الوثني المتمثّـل بصناديد قريش، فاضطربتْ عقولهُم في رؤوسهـم الخاوية إلا مِنَ البغي والظُّلم واستعباد الضُّعفاء، ورجفتْ قلوبُهم الفارغة إلا من الفساد والتَّعبُّد للأصنام، غير أنَّ المسلمين صبروا صَبْرَ الكرام وبرهَنوا على صبرهم بثباتهم وصدقهم.

وظلّتِ الطَّاهرةُ أمّنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ مِنْ وراء رسول الله ﷺ تشدُّ أزرَهُ، وتشاركه في حَمْلِ الأذى من قومه بنفس راضية صابرة محتسبة، حتى قضى الله تعالىٰ قضاءه في هذه المقاطعة الظَّالمةِ المريرة التي مكثت سيفاً مصلتاً على أعناق المحاصرين المؤمنين برسالةِ محمَّد ﷺ.

* انتهى الحصـارُ، وخـرجتِ الـطَّاهـرةُ خـديجـة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ مِنَ الحصار ظافرة بثمرة صبرها

لتتابعَ مع رسول الله ﷺ سيرها في الحياة زوجة أمينة مستظلة بظل الوفاء وصدق الإيمان وحسن الصّبر، وفي ثبات المسلمين على هذه الشّدة الرّهيبةِ جعلهم الله من أصحاب المقامِ الرَّفيعِ في الآخرة، وجعلهم سادة الأرض في الدُّنيا، وذاك جزاء الصَّابرين، وأَجْر الشّاكرين.

وجــزاهم في جنَّـةِ الخلدِ فيمـا
صبــروا وهي منـه خيــر جــزاءِ

* * *

وداعاً أمّنا الطَّاهِرةَ:

* عندما خرجتِ الطَّاهرةُ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ مِنَ الحصار، لم تلبثْ إلا قليلاً حتى لبّتْ نداءَ ربِّها راضيةً مرضيةً، مبشّرةً من سيِّد الخلق سيّدنا رسول الله ﷺ بمقْعَدِ صدق عند مليك مقتدر، وبالنّعيم المقيمِ عند الكريم المتعال.

* توفيتِ الطَّاهرةُ ـ رضي الله عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنوات في مكة ولها من العمر خمس وستون سنة، ولما حضرتها الوفاةُ دخل عليها النّبي ﷺ فقال: «تكرهين ما أرىٰ منك وقد جعل الله في الكره خيراً». وعند دفْنِها نزلَ رسولُ الله ﷺ في حفرتها[1]، وأدخلها القبر بيده الشّريفة في

---

(1) المجتبى (ص 91).

الحجون[1]، وَوَجَدَ عليه الصَّلاةُ والسَّلام لفقدها، وتركت وفاتها في نفسه أثراً عميقاً، إذ كانت الزَّوجة الوفية التي يجد فيها سكن النَّفْسِ، وراحة الرُّوح، كما كان لموت عمِّه أبي طالب قبلها[2] أثر كبير في نفسه أيضاً حتى أطلق النَّبي ﷺ على ذلك العام اسم «عام الحزن»؛ لشدة ما كان فيه مِنَ الشَّدائد في سبيل الدَّعوة أيضاً.

* وأودُّ - عزيزي القارىء - أَنْ أسجِّلَ في هذا المجال فضلاً للدكتور محمَّد سعيد رمضان البوطي - حفظه الله - إذ يقول كلاماً طيِّباً عن عام الحزن في كتابه القيِّم «فقه السِّيرة»:

. . . . . بعض النَّاس يحسبون أنَّ سببَ تسمية الرَّسول ﷺ لهذا العام عام الحزن إنَّما هو مجرد فقده ﷺ لعمِّه أبي طالب وزوجته خديجة بنت خويلد، وربما استساغوا إقامة علائم الحزن والحِداد على موتاهم مدة طويلة مِنَ الزَّمن مستدلين بهذا؛ والواقع أنَّ هذا خطأ في الفهم والتقدير.

فالنَّبيُّ ﷺ لم يحزنْ على فراق عمِّه وفراق زوجه ذلك الحزن الشَّديد، ولم يطلق على تلك السَّنة عام الحزن؛ لمجرد أنَّه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم، بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهما من انغلاقٍ معظم أبواب الدَّعوة

---

(١) جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها.

(٢) قيل بثلاثة أيام.

الإسلامية في وجهه، فقد كانت حماية عمّه له تترك مجالات كثيرة للدعوة وسُبُلاً مختلفة للتوجيه والإرشاد والتّعليم، وكان يرىٰ في ذلك بعض النجاح في العمل الذي أمره به ربّه[1].

* * *

الطَّاهِرَةُ أمُّ العِيَالِ:

* ترك موتُ الطَّاهِرَةِ خديجة ـ رضي الله عنها ـ فراغاً هائلاً في حياة رسول الله ﷺ، أحسَّ به إحساساً قوياً، وحزن بسببه حزناً شديداً، وغلب عليه الوجد حتى خُشي عليه، فلقد غدا البيتُ بموتها خلاءً موحشاً لا أنيس به ولا سمير، ولما قالتْ له خولة بنت حكيم: يا رسول الله كأنّي أراك قد دخلَتْكَ خَلَّة[2] لفَقْدِ خديجة، قال: «أجل كانت أمّ العيال وربّة البيت».

ولله در القائل:

ولـو كـان النِّســاء كَمَنْ فَقَـدْنـا
لفُضلتِ النِّســاء على الـرِّجـالِ

* قال ابنُ إسحاق ـ رحمـه الله ـ في السِّيرة: ثم إنَّ خديجة بنت خويلد وأبا طالب، ماتا في عام واحد، فتتابعتْ

---

(١) انظر فقه السيرة (ص ١٣٥).

(٢) أي حزن وحاجة.

على رسول الله ﷺ المصائب بموتهما، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، كان يسكن إليها[1].

* وذكر الإمام النَّووي ـ رحمه الله ـ أنَّ الطَّاهرة خديجة بقيتْ مع النَّبي الكريم ﷺ أربعاً وعشرين سنة وأشهراً ثم توفيت[2].

* * *

الثَّناءُ علىٰ الطَّاهِرَةِ:

* يقولُ الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن الطَّاهرة خديجة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ : ومناقبُها جَمَّةٌ، وهي ممَّنْ كَمُلَ مِنَ النِّساء، كانت عاقلةً جليلةً ديِّنة مصونةً كريمةً، من أهل الجنَّة، وكان النبي ﷺ يثني عليها ويُفضلها على بقيـة أمهات المؤمنين ويبالغ في تعظيمها، بحيث إنَّ عائشـة ـ رضي الله عنها ـ كانت تقول: ما غرتُ من امرأةٍ ما غرتُ من خديجة من كثرة ذِكْرِ النبي ﷺ لها[3].

* وقد كان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يحبُّها ويكرمُها ويثني عليها، وفي حقِّها يقول:

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/٤١٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/٢٣٦)، والإصابة لابن حجر (٤/٤٧٤).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/١١٠)، والحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

* «كملَ من الرِّجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلا ثلاث: مريمُ بنت عمران، وآسيةُ امرأة فرعون، وخديجةُ بنت خويلد، وفضلُ عائشة على النِّساء كفضل الثَّريدِ على سائر الطعام».

* وقد عقَّب أحدُ الفُضلاء على هذا الحديث تعقيباً لطيفاً فقال: مِنَ الموافقاتِ اللطيفة التي جَمَعَتْ الثَّلاث في نسقٍ واحد أنَّ كلَّ واحدة منهن كفلت نبيّاً مرسلاً، وأحسنت صحبتَه وآمنتْ به، فآسية ربَّت موسىٰ، وأحسنت إليه، وصدّقت به حين بُعثَ، ومريم كفلت عيسى وربّته، وصدّقت به حين أُرسل، وخديجةُ رغبتْ في النَّبي وواسته بِنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت أول مَنْ صدّقه حين نَزل عليهِ الوحي.

* وكان النَّبي ﷺ يذكر الطَّاهرة خديجة كثيراً ويقول: «إنّي رُزِقْتُ حُبَّها»[1].

وقال ﷺ في الثَّناء عليها أيضاً:

«خيرُ نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة» وأشارَ إلى السَّماء والأرض[2].

* ولقد ظلَّ زواجُ النَّبيِّ الحبيب ﷺ بالطَّاهرةِ خديجة

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل.
(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

قائماً حتى توفيت عن خمسة وستينَ عاماً، وقد ناهز النّبي الكريم ﷺ الخمسين، وقضى أجمل سني حياته معها، وتركتِ الطّاهرةُ في نفسه ﷺ أثراً نبيلاً لم تزدْهُ الأيام إلا بركةً ووفاءً لها وثناء عليها.

* ومَن كرامتها عليه ﷺ أنّه لم يتزوج امرأة قبلها، وكل أولاده منها ما عدا إبراهيم ابن مارية، ولم يتزوج عليها قطّ إلى أنْ قضتْ نحبها ـ رضي الله عنها ـ.

* وبقي النّبي الكريم ﷺ وفيّاً لها، يثني عليها دائماً، يحبُّ مَنْ يحبُّها، وترتاح نفسُه لنبرة صوتها؛ فقد كانت تستأذنُ عليه هالة بنت خويلد أخت الطّاهرة خديجة، فيذكِّرهُ صوتها صوتَ خديجة وحديثها الطّيب وأيامها الحلوة المباركة، فيهشُّ لها، وترتاح نفسه لذلك، وتشرقُ أسارير وجهه الشّريف ﷺ.

* * *

الوَفَاء للطّاهِرة:

* كان النّبي الكريمُ ﷺ ـ وهو الوفيّ ـ قد وفّى للسيدة الطّاهرةِ خديجة أمّ المؤمنين في حياتها بكرمِ الصُّحبة وطيبِ العشرة، وظلّ عليه الصّلاةُ والسّلام وفيّاً لها بعد وفاتها أشدَّ الوفاء، فقد كان دائم الذِّكر لها والإشادة بفضائلها وأولياتها، ومن ثَمّ التّرحم عليها، بل والإحسان إلى كل مَنْ يَمتُّ إليها بسبب.

* وقد كان النَّبيُّ الكريم ﷺ وفيّاً لمن لم يستحق الوفاء، فكيف بالطّاهرة منبع الوفاء ومعدن الفضائل كلّها؟! إذن فلا عجب أنْ يكونَ وفاؤه ﷺ وفاءً منقطع النَّظير.

* ومن الدَّلائل الرائعة علىٰ وفائه ﷺ للطّاهرة خديجة، ما حَدَثَ في غزوة بدر الكبرى، إذ أُسِرَ أبو العاص بن الرَّبيع صِهْر الرَّسول الحبيب ﷺ وزوج ابنته زينب ابنة زوجه الوفية الكريمة خديجة، فأرسلتِ الوفيةُ زينب فداءً لزوجها أبي العاص؛ ومن ضمن الفداء قلادة كانت قلدتها بها والدتها المعطاء خديجة ـ رضي الله عنها ـ ليلة زفافها، فلّما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقَّةً شديدة، وتذكَّرَ زوجه المباركة الوفية خديجة، وقال لأصحابه:

«إن رأيتم أنْ تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها قلادتها فافعلوا».

فما كان من أصحابه الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ إلا أنْ سارعوا بالاستجابة للنَّبي الكريم ﷺ الذي حرّكته مشاعر الذكرى للصِّدِّيقةِ الوفيّة الطّاهرة ـ رضوان الله عليها ـ خديجة امّ المؤمنين؛ فللّه هذهِ الطّاهرة المِعطاء أمّنا خديجة التي لها دَينٌ كبير في عنق كل مسلم ومسلمة، رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

أوّليّاتٌ للطّاهرة ـ رضي الله عنها ـ :

* للطّاهرة الصِّديقة أم المؤمنين خديجة ـ رضوان الله عليها ـ أوّلياتٌ لم تُسْبَقْ إليها، فهي كما قال الإمام عزُّ الدِّين أبو الحسن بن الأثير ـ رحمه الله ـ : خديجةُ أولُ خلقِ الله أَسْلَمَ بإجماع المسلمين لم يتقدمْهَا رجل ولا امرأة[1]. وهذه منقبة عظيمة لأم المؤمنين لا يدانيها فيها فضل.

* وقال الأئمةُ؛ الزُّهريِ، قتادةُ، موسى بن عقبة، ابنُ إسحاق، الواقدي، وسعيدُ بن يحيى الأموي رحمهم الله تعالى: أولُ مَنْ آمنَ بالله ورسوله خديجة، وأبو بكر، وعلي[2].

* وقال الإمام الزُّهري ـ رحمه الله ـ :كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ أول مَنْ آمن بالله، وقَبِلَ الرسول رسالة ربِّه وانصرف إلى بيته، وجعل لا يمرُّ على شجرة ولا صخرة إلا سلَّمت عليه، فلما دخل على خديجة قال: أرأيتُك الذي كنتُ أحدثُكِ أنّي رأيتُه في المنام، فإنّه جبريل استعلن لي أرسله إليَّ ربي، وأخبرها بالوحي فقالت: أَبْشِر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً؛ فاقبلِ الذي جاءَك مِنَ الله فإنّه حق[3].

---

(١) انظر في هذا أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧)، والكامل في التاريخ (٢/٥٧)، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٢/١٠٩).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (١/١٢٧).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (١/١٢٨).

* وفي كتابه النَّفيس «الفصول» ذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ أوليّات للطّاهرة خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال:

أولُ صِدّيق له رضي الله عنها وأكرمها[1].

وفي موضع آخر يقول:

* أولُ مَنْ تزوّج رسول الله ﷺ خديجة، وأولُ مَنْ آمن به على الصَّحيح خديجة[2].

* ومن أوّليات الطَّاهرة خديجة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها:

* أولُ مَنْ صَلّىٰ مع رسول الله ﷺ.

* وأولُ مَنْ رُزق منها الأولاد.

* وأول مَنْ بشَّرها بالجنَّة مِنْ أزواجه.

* وأول مَنْ أقرأها ربُّها السَّلام.

* وأول صدّيقة مِنَ المؤمنات.

* وأول زوجات النَّبي ﷺ وفاة.

* وأولُ قبر نزل فيه النَّبي الكريم ﷺ قبرها بمكة.

* * *

---

(١) الفصول (ص ٩٧).

(٢) الفصول (ص ٢٤٣).

الطّاهرةُ خديجةُ والصّديقةُ عائشة ـ رضي الله عنهما ـ :

* كان الإمام مسروق بن الأجدع الهمداني التّابعي الثّقة المشهور، إذا حدَّث عن أمِّ المؤمنينَ عائشة قال:

حدّثتنا الصّديقةُ بنتُ الصّديق حبيبةُ رسول الله ﷺ المبرأةُ من السّماء.

* هذه الصّديقة عائشة كانت لها مكانتُها في نفسِ رسول الله ﷺ، ذَكَرَتْ ذاتَ مرّةٍ الطّاهرةَ خديجةَ أمَّ المؤمنين بدافعِ الغيرة، ولكنّها نُهِيَتْ أنْ تذكرَ الطّاهرةَ خديجة بهذه الصُّورة، فإنّها لم تصلْ إلىٰ مكانها، فالطّاهرةُ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ سابقةُ إسلام، وذاتُ رأيٍ سديد ومواساة لرسول الله ﷺ، وفضلُها عظيمٌ وخيرها عميم، تحدثتِ الصّديقةُ بنتُ الصّديق ـ رضوان الله عليهما ـ عن هذا فقالت:

كان رسولُ الله ﷺ لا يكاد يخرجُ مِنَ البيت حتى يذكرَ خديجة فيحسن الثّناءَ عليها، فذكرها يوماً من الأيام، فأخذتْني الغيرةُ فقلتُ:

هل كانتْ إلا عجوزاً قد أبدلَكَ اللهُ خيراً منها.

فغضب ثم قال: «واللهِ ما أبدلني خيراً منها، آمنت بي إذْ كفرَ النّاسُ، وصدّقتني إذ كذبني النّاس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها».

قالت عائشةُ: فقلتُ في نفسي: فلا أذكرُها بعدها بسبّةٍ أبداً[1].

وروتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما غرتُ من امرأةٍ ما غرتُ على خديجةَ من كثرة ما كان رسول الله ﷺ يذكرُها[2].

وفي تعليقِ الإمام الذَّهبيِّ ـ رحمه الله ـ على هذا الحديث ما يشيرُ إلى بركةِ ومكانةِ الطّاهرة أمِّنا خديجةَ فيقول:

وهذا مِنْ أعجبِ شيء أنْ تغارَ ـ رضي الله عنها ـ مِنْ امرأة عجوزٍ توفيتْ قبل تزوّج النّبي ﷺ بعائشةَ بفترة مديدة، ثمَّ يحميها اللهُ من الغيرة من عدةِ نسوة يشاركنها في النَّبي ﷺ، فهذا مِنْ ألطاف الله بها وبالنَّبي ﷺ لئلا ينكدر عيشهما[3].

* الله أكبر، أيّةُ امرأة ـ الطّاهرة خديجة ـ هذه التي ظلت ذكراها تصاحبُ النَّبيَّ ﷺ في حياته وهي تحتَ التّراب؟! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* وفي بيت عائشة كرامات أخرى للطاهرة خديجة، فقد جاءت النَّبي ﷺ ذات يوم امرأةٌ عجوزٌ من صويحبات الطّاهرة

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/١١٧)، ومجمع الزوائد (٩/٢٢٤) بلفظ مشابه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/١٦٥).

خديجةَ فأحسن لقاءها، وأكْرَمَ مثواها، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وصار يسألُ عن أحوالها وما صارت إليه، فقالت عائشة لمَّا خرجت: تُقبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال! فقال:

«إنَّها كانت تأتينا زمان خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهدِ من الإيمان»[1].

* وفي صحيح الإمام مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النَّبي ﷺ كان إذا ذبحَ الشَّاة قال: **«أرسلوها إلىٰ أصدقاء خديجة»** فذكرت له يوماً فقال: **«إنِّي لأحِبُّ حبيبَها»**.

* * *

الطَّاهرةُ وبشارتُها بالجنَّة:

* قال تعالى: **﴿والسَّابقونَ السَّابقون * أولئكَ المقرَّبُونَ * في جنَّات النَّعيم * ثلَّةٌ مِنَ الأولين﴾**، [الواقعة: ١٠ ـ ١٣].

* وقال تعالى: **﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ أولئك هم خيرُ البرية * جزاؤهم عند ربِّهم جنَّات عدنٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً رضيَ الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشيَ ربَّه﴾** [البيِّنة: ٧ و ٨].

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي في الشعب.

* للطَّاهرة أمِّ المؤمنينَ خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ منزلةٌ عظيمةٌ في حياةِ المصطفى ﷺ، وقد ظلّتْ مكانتها ساميةً عند النَّبي رسول الله ﷺ طوال حياته، ثَبَتَ في الصحيحين أنَّها خيرُ نساءِ زمانها على الإطلاق، وقد بشَّرها ﷺ بالجنَّةِ مراراً؛ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

* أتىٰ جبريل النَّبي ﷺ فقال: أقرىء خديجةَ من الله ومني السَّلام، وبشِّرها ببيتٍ في الجنَّة من قَصَبٍ لا صخبَ فيه ولا نَصَب»[1].

* وفي لفظٍ آخر روىٰ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ بشارة الطَّاهرة خديجة بالجنَّةِ فقال:

* «أتى جبريل عليه السَّلام إلىٰ النَّبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة أتتْكَ معها إناء فيه إدام طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام من ربها وبشِّرها ببيتٍ في الجنَّة من قَصَب لا صخَب فيه ولا نَصَب»[2].

* وفي هذا الحديث الشَّريف ـ عزيزي القارىء ـ فضيلةٌ عظيمةٌ مباركة للطَّاهرة أمِّ المؤمنين خديجة ـ عليها رضوان الله ـ ، حيثُ إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أقرأها السَّلام وكذلك

(١) الحديث أخرجه الشيخان، وانظر فضائل الصحابة للنسائي (ص ٧٥)، وانظر مجمع الزوائد (٩/٢٢٣ و ٢٢٤).

(٢) رواه الإمام البخاري.

جبريل عليه السّلام، وإنّه سبحانه وتعالى لا يقرىء السّلام إلا لمن كانت عنده منزلة عالية، ومرتبة رفيعة، كما أنّ الله قد بشّرها ببيتٍ في الجنّةِ ليس فيه صياح ولا منازعة، ولا ما يوجب المشقة والتّعب.

وللسُّهيلي ـ رحمه الله ـ تعليقٌ لطيف على هذا الحديث يشير إلى مكانة الطّاهرة خديجة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ[1].

* والطاهرة خديجة تتلقّىٰ السّلام من الله وهي عند النّبي عليه الصّلاة والسّلام، فعن سيّدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ قال:

«جاء جبريلُ إلى النّبي ﷺ وعنده خديجة فقال: إنّ الله يُقرىءُ خديجة السّلام. فقالت: إنّ اللهَ هو السّلام، وعلى جبريل السّلام، وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته»[2].

* وذكر أهلُ العلم أنّ هذا الجواب مِنَ الطّاهرةِ خديجة يـدلُّ على فقهها ووفـور عقلها وحسن أدبهـا ـ رضي الله عنها ـ .

* وفي حديث آخر ـ يـرويه ابنُ عبـاس ـ رضـــي الله

---

(١) راجع هذا إن شئت في كتاب «الروض الأنف» للسهيلي (٨٢٤/٢ و ٤٢٩).

(٢) فضائل الصحابة للنسائي (ص ٧٥ و ٧٦).

عنهما ـ إشارة إلى بشارة الطاهـرة أمّ المؤمنين خديجة بالجنّة فيقول:

* خطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرض خطوطاً،
قال: «أتدرون ما هذا؟».

قالوا: اللهُ ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: «أفضلُ نساء أهل الجنَّة خديجة بنت خويلد، وفاطمةُ بنت محمّد، ومريمُ بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[1].

* وعن سيّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ أنّها قالت للنَّبي ﷺ: أين أمّنا خديجة؟.

قال: «في بيتٍ من قَصَب لا لغو فيه ولا نَصَب بين مريم وآسية».

* قالت: مِنْ هذا القَصَب؟.

* قال: «لا، بل مِنَ القصبِ المنظوم بالـدُّر واللؤلؤ والياقوت»[2].

* نعم فقد كانتِ الطَّاهرةُ خديجة وزيـرة صدق على الإسلام، ووفَّرت كُلَّ وسائل الرَّاحة للنَّبي ﷺ في دنياها،

---

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر مجمع الزوائد (٩/٢٢٣).

فكان جزاءً وفاقاً أنْ يوفرَ اللهُ سبحانه لها كلّ وسائل الراحة والنَّعيم في أخراها. ﴿إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً﴾ [سورة الإنسان: ٢٢].

* وبعد فهذه صفحاتٌ مباركة مشرقةٌ مِعْطار من حياة الطَّاهرة أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ سيِّدة نساء العالمين التي شرَّفها الله فجعلها أولى زوجات النَّبي الطَّاهرات رضوان الله عليهن.

* والحديث ـ أخي القارىء ـ عن الطَّاهرةِ أمِّ المؤمنين خديجة حديث ممتعٌ وطويل، ولكنِّي حاولتُ إبراز بعض مواقفها العطرة وتبيان كرامتها وبشارتها بالجنَّة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* مرة أخرى نقول: رضي الله عنِ الطَّاهرةِ خديجة أمّ المؤمنين، وقبل أنْ نودِّعَ أمّنا في عليين عند العلي القدير نقرأ قوله تعالى: ﴿إنَّ المتقينَ في جنّاتٍ ونَهَر * في مقعدِ صِدْقٍ عندَ مليكٍ مُقتدَر﴾ [القمر: ٥٤ و ٥٥].

* * *

(٢)

فاطمة بنت أسد
رضي الله عنها

فاطمة بنت أسد
رضي الله عنها

«... ... إنّما ألبستُها قميصي لتُكسى مِن حُلَلِ الجنّةِ... .»

حديث شريف

«اللّه الذي يُحيي ويُميتُ، وهو حيّ لا يَموتُ، اغفِر لأمّي فاطمةَ بنت أسَد... .»

حديث شريف

فَاطمةُ بنتُ أَسَد
رضي الله عنها

تعريفٌ وتَقْديم:

* نحن اليوم في رحاب صحابية جليلة، حافظت على رسول الله ﷺ حفاظَ الصَّدر على القلب، والأجفان على العين، أحبّته حبَّ الأمّ الـرؤوم لوحيدها.

هذه السّيدة الجليلة واحدة من النّساء الفاضلات اللاتي كان لهنّ نصيبٌ في تاريخ الإسلام في مراحله الأولى، وكان لها خدمات حِسَان ومواقف رائعة، سُجِّلت لها بأحرف تشعّ بالنّور وتفيض بالبركة.

* وهذه الصّحابية الكريمة لها مِنَ الآثار والمناقب ما جعلها مِنَ الأوائل، فقد حظيتْ بتربية خير خَلْق الله على الإطلاق محمّد ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب.

وهي كذلك والدةُ رابع الخلفاء الرّاشدين وفارس النّبي

الكريم سيدنا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وهي أيضاً جدة سَيِّدَي شباب أهل الجنة الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

أضف إلى ذلك أنّها أمُّ الشّهيد سيدنا جعفر الطيار أحد الأمراء الثّلاثة في سرية مؤتة.

وهي فوق هذا وذاك حماة سيدة نساء العالمين في زمانها، بنت سيد الخَلْق رسول الله ﷺ، الصّابرة الدّينة الخيِّرة الصيِّنة القانتة الشّاكرة لله، فاطمة الزّهراء رضي الله عنها وأرضاها.

* والآن، فمَنْ كبيرةُ القَدْرِ من الصّحابيات التي جُمعَتْ لها وفيها تلكم الفضائل؟.

الإمام شمس الدين الذّهبي ـ رحمه الله ـ يقدِّمُ لنا بطاقة هذه الصّحابية فيقول: «فاطمةُ بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، الهاشمية، والدة علي بن أبي طالب»[1].

* كانت فاطمة[2] ـ رضي الله عنها ـ من المهاجرات الأُوَل، وتلتقي مع رسول الله ﷺ في جَدِّه هاشم.

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١١٨/٢) وانظر كذلك تاريخ الإسلام للذهبي (٦٢١/٣).

(٢) ذكر أبو بكر بن الحسن بن دريد في كتابه النفيس «الاشتقاق» أن

رعايتُها للنّبي ﷺ:

* لما أحسّ عبد المطلب جدّ النّبي ﷺ بدنو أجله، أوصى ولده أبا طالب بأنْ يحوطَ ابنَ شقيقه محمّد بن عبد الله، ولعلَّ عبد المطلب قَصَدَ مِنْ هذا إلى أنَّ اليَدَ الحانيةَ الأمينة تكمن في بيت أبي طالب، وعند زوجه فاطمة بنت أسد صاحبة القلب الرّحيم، وبرهنَ أبو طالب وزوجه فاطمة على حُسْنِ الرّعاية لمحمّد ﷺ، فقد جعلت فاطمة تشمله برعايتها، وتشرف عليه مع زوجها، وكانت ترىٰ البركةَ تحلُّ في طعام أولادها إذا أكل معهم محمّد ﷺ.

* وكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعاً أو فرادىٰ لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أنْ يغديّهم أو يعشيهم يقول: كما أنتم حتى يأتي ابني، فيأتي رسولُ الله ﷺ فيأكل معهم فيفضل من طعامهم.

وإن كان لبناً شرب رسول الله ﷺ أوّلهم، ثم تناول القَعْب ـ القدح ـ فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القَعْب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قَعْباً وحده، فيقول أبو طالب: إنّك لمبارك.

- اشتقاق فاطمة من الفَطْم وهو القَطْع، ومنه فُطِم الصبي إذا قُطِع عنه اللبن. . . . . . ويقول الرجل للرجل: والله لأفطمنّك عن كذا وكذا، أي لأمنعنّك عنه. كتاب الاشتقاق (ص ٣٣ و ٣٤).

وكان الصّبيان يصبحون شعثاً رُمصاً[1]، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً[2].

* وكانت فاطمة بنت أسد ترى كل هذا، فتزداد حباً ورعاية للنّبي الكريم، وتُحسنُ إليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لذلك كان النّبي عليه الصّلاة والسّلام يتمثّل شخص أمِّهِ - آمنة بنت وهب - في شخص فاطمة بنت أسد زوج عمه التي وفّرت له سُبُل الرّعايةِ في طفولته وفي شبابه، فكانت له من بعد أمّه أمّاً، ومن بعد جدّه قلباً حانياً يفيض بالعطف والإيثار، وظلت ترعاه إلى أنْ تزوجَ بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها.

* كانت فاطمة تسمعُ ما يتكلم به النّاس عن محمد عليه الصّلاة والسّلام، وكثيراً ما كانت تسمع من زوجها أبي طالب قوله: إنَّ ابنَ أخي ليخبر بنعيم[3] - أي بشرف عظيم -.

وكذلك سمعتْ عما حصل له ﷺ من البركة عندما سافر مع زوجها إلى الشّام، وسمعت ما حدّثَ به ميسرة غلام خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - من خصال الخير عندما سافر بتجارتها إلى الشّام.

---

(١) الرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في مُوق العينين.
(٢) انظر عيون الأثر (١/٥١)، والسيرة الحلبية (١/١٨٩).
(٣) انظر السيرة الحلبية (١/١٨٩).

وها هي تدفَعُ بفلذة كبدها عليّ بن أبي طالب ولدها ليعيشَ في بيت رسـول الله ﷺ، وكانت تـرى فيه الأبَ الرّحيم، وقد لاحظتْ عناية الرسول الكريم بولدها منْ قَبْل، فقد رُوي عنها أنّها قالت: لما ولدته سمّاه علياً، ويصق في فِيه ـ فمه ـ ثم ألقمه لسانه، فما زال يمصّه حتى نام، فلما كان من الغَدِ طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثديَ أحد، فدعونا له محمداً ﷺ فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ما شاء الله عزّ وجل[1].

* لهذا كله ظلت فاطمة بنت أسد تخصّـه بالاحتـرام والتقدير، لما حباه الله سبحانه من صفات الكمال، فقد عصمه الله من عبثِ الجاهلية وأدرانها، فكان ﷺ نموذجاً حياً للفضيلة والخير والصّدق.

* * *

إسْلامُها ـ رضي الله عنها ـ :

* أوحىٰ الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم أنْ ينذر عشيرتَه، وأنزل عليه قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتَك الأقربين﴾ [الشُّعراء: آية ٢١٤]. فامتثل النّبي الكريم أمْرَ ربّه، ودعا أقاربه إلى خيرَي الدّنيا والآخرة، وكانت فاطمة بنت أسد من

---

(١) المصدر السابق (١/٤٣٢).

النّساء اللاتي سارعن إلى الإيمان بـالله ورسولـه، واعتذر زوجها أبو طالب اعتذاراً لطيفاً، بينما أسلم أولادها وأولهم سيدنا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

* وهنا بدأت حياة الصّحابية الفاضلة فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ ، تسير في طريق آخر يختلف عن ذي قبل، فقد بدأت قريش تهاجم محمداً ﷺ، وتقفُ في وجه الإسلام تحاربه بكل السُّبل، وخاصمتْ بني هاشم من أجله، وهالَهُم عندما رأوا عمَّه أبا طالب قد حَدَب على ابنِ أخيه وقام دونه فلم يُسلمه إليهم، وراحوا ينتقمون من الذين آمنوا وتبعوا محمداً ﷺ.

ولما رأى النّبي ﷺ أنَّ قريشاً ممعنة في تعذيب أصحابه، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، ووقفتْ فاطمة بنت أسد تودِّع ابنها الأثير ـ جعفر ـ وزوجه أسماء بنت عميس، ودّعته وقلبها يتفطّر حزناً، فقد كانت ترى فيه شَبَه[1] النّبي الكريم

---

(١) كان الذين يشبهون النبي الكريم ﷺ خمسة، وكلّهم من قريش وهم: جعفر بن أبي طالب، وقثم بن العباس، والسائب بن عبيد ابن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب، وأبـو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب، والحسن بن علي بن أبي طالب، وقد نظمهم شعراً ابن سيد الناس فقال:

بخمسة شبه المختار من مَضر
يـا حُسْنَ مـا خـوِّلـوا مـن شبهـه الحسَنِ

ﷺ، وكان ابنها جعفر أمير المهاجرين في الحبشة.

* ولما رأت قريش أنَّ الأمر يكاد يخرج من يدها، لجأت إلى مقاطعة بني هاشم، وحُصر بنو هاشم وبنو عبد المطلب بنسائهم وأطفالهم في الشعب، وصبرت فاطمة بنت أسد مع مَنْ صبر من النّساء تبتغي بذلك رضوان الله، وقاست واشتد عليها البلاء، وأكلت ورق الشّجر مع المسلمين المحاصرين، ورأت قريش أنَّ بني هاشم وبني عبد المطلب قد صبروا للمحنة كراماً، واحتملوها أعزة شمّاً، بل عجبوا من صَبْر نسائهم على تحمّل المحنة التي استمرت نحواً من ثلاث سنين، وذكر هذا ابن سعد في الطّبقات فقال: «فلما رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم وعرفوا أنّهم لن يسلموهم، وكان خروجهم من الشّعب في السّنة العاشرة من البعثة».

* وفي هذه السّنة توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج الرّسول الكريم، ثم توفي عمّه أبو طالب، فاشتدت المصائب على المسلمين، وأخذت قريش تجتهد أكثر في إيذاء الرّسول الكريم ﷺ إلى أنْ أَذِنَ اللهُ بالهجرة إلى المدينة المنورة.

* ولما هاجر الرّسول الكريم وأصحابه إلى المدينة، هاجرت فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ مع مَنْ هاجر،

= بجعفر وابن عم المصطفى قثم
وسائب وأبي سفيان والحسنِ

ونالت بذلك أجْر الهجرة مع المهاجرات، وذكر الزّبير بن بكار إسلامها وهجرتها فقال: وقد أسلمت وهاجرت إلى الله ورسوله[1].

* * *

مكانتُها ومناقبُها ـ رضي الله عنها ـ :

* ذكر الإمام الشّعبي أحد سادة التّابعين رحمه الله، إسلامَ فاطمة بنت أسد وهجرتها فقال: أمُّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فاطمة بنت أسد بن هاشم، أسلمت وهاجرت إلى المدينة[2].

* وتحدث ابن سعد عن مكانة فاطمة بنت أسد عند رسول الله ﷺ فقال: أسلمت فاطمة بنت أسد وكانت امرأة صالحة، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويقيل في بيتها[3].

* وكان رسول الله ﷺ يحترمها احتراماً شديداً لما كانت عليه من صلاح ودِين، وكان يحسن إليها لما كانت عليه من أخلاق وحسن رعاية وبرّ بالنّبي ﷺ.

* ولما تزوج ابنها علي ـ رضي الله عنها ـ فاطمة ابنة

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٧٠).

(٢) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧١٦٨) والإصابة (٤/٣٦٨).

(٣) انظر الطبقات الكبرى (٨/٢٢٢) وصفة الصفوة (٢/ ٥٤).

رسول الله ﷺ، كانت فاطمة بنت أسد مثال الحماة الطيبة والأم الرؤوم، ويحدثنا سيدنا علي عن هذا فيقول: قلت لأمي فاطمة بنت أسد: اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء، والذّهاب في الحاجة، وتكفيك خدمة الداخل الطحن والعجن[1].

* ولمكانتها الرفيعة عند رسول الله ﷺ، كان يتحفها بالهدية، فعن جعدة بن هبيرة عن عليّ قال: أهدىٰ إليّ رسولُ الله ﷺ حلّة إستبرق فقال: «اجعلها خُمُراً بين الفواطم» فشققتُها أربعةَ أخمرة، خماراً لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وخماراً لفاطمة بنت أسد، وخماراً لفاطمة بنت حمزة، ولم يذكر الرّابعة[2].

* وما دمنا في ذكر الفواطم، فالفواطم الصّحابيات أربع وعشرون صحابية، كل واحدة منهن اسمها فاطمة، والفواطم اللاتي ولدنَ النّبي ﷺ: قرشية، وقيسيتان، ويمانيتان، وأزدية، وخزاعية[3].

---

(١) انظر صفة الصفوة (٢/ ٥٤) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٦٢١) ومجمع الزوائد (٩/ ٢٥٦).

(٢) انظر الإصابة (٤/ ٣٧٠)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٧٢). قال ابن حجر: ولعلها ـ أي الرابعة ـ امرأة عقيل بن أبي طالب، واسمها فاطمة بنت شيبة.

(٣) انظر مادة «فطم» في القاموس المحيط ولسان العرب.

* ومن الطريف هنا أن لفاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ أوليات في التّاريخ، فقد ذكر ابن الأثير ـ رحمه الله ـ هذا فقال: هي أولُ هاشمية وَلَدَتْ لهاشمي، وهي أيضاً أول هاشمية ولدت خليفة، ثم بعدها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولدت الحسن، ثم زبيدة امرأة الرشيد ولدت الأمين لا نعلم غيرهن.

* وكان لفاطمة بنت أسد ـ رضوان الله عليها ـ مكانة سامية في نفوس الصّحابة رضي الله عنهم، وخاصة شعراء الصّحابة؛ فقد ذكرها حسان بن ثابت شاعر الرّسول لما رثى ولدها جعفر بن أبي طالب عندما استشهد في مؤتة[1]، وهذا الحجاج بن علاط السُّلمي ـ يمدح سيدنا علي بن أبي طالب، عندما قتل طلحة بن أبي طلحة، صاحب لواء المشركين يوم أحد، ويذكر أمّه فاطمة:

لله أيُّ مذنبٍ عن حُرمة
أعني ابن فاطمة المُعَمَّ المُخْوِلا
جادت يداك له بعاجلِ طَعْنَةٍ
تركتْ طُلَيْحَةَ للجبين مُجَدَّلا[2]

* * *

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٢٢) طبعة دار المعارف.

(٢) انظر هذا الخبر في ديوان حسان بن ثابت (ص ٩٠)، والسيرة النبوية لابن هشام (١٥١/٢)، وانظر ترجمة الحجاج بن علاط في الإصابة، وانظر

وفاتُها وكرامتُها ـ رضي الله عنها ـ :

* ذكر السّمهودي ـ رحمه الله ـ في كتابه النّفيس «وفاء الوفـا بأخبار دار المصطفى» أنَّ رسولَ الله ﷺ قد دفن فاطمة بنت أسد بن هاشم بالرّوحاء في المدينة المنورة.

وكانت لفاطمة مكانة كبيرة في نفس النّبي الكريم، فلما توفيت لم ينسَ رسول الله إكرامها، فقد ذُكر أنَّه كفَّنَ فاطمة في قميصه، واضطجع في قبرها، وأثنى عليها خيراً[1].

* ومن الأخبار الذّهبية التي تضاف إلى كرامات الصّحابية الجليلة فاطمة بنت أسد، ما ذكره السّمهودي من أنَّ النّبي ﷺ، لم ينزلْ في قَبْرٍ أحد قط إلا خمسة قبور، ثلاث نسوة ورجلين، منها قبر خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ بمكة، وأربع بالمدينة، قبر ابن خديجة كان في حجر النّبي ﷺ وتربيته، وقبر عبد الله المزني الذي يقال له ذو البِجَادين، وقبر أم رومان[2] أم عائشة بنت أبي بكر الصديق، وقبر فاطمة بنت أسد[3] رضي الله عنهم جميعاً.

* وكان لوفاة فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ أثرٌ كبيرٌ في نفس النّبي الكريم، وفي نفوس الصّحابة، وقد أثنىٰ عليها

- البداية والنهاية (٧/٣٣٦).

(١) أسد الغابة ترجمة رقم (٧١٦٨).

(٢) انظر سيرة أم رومان في هذا الكتاب.

(٣) عن وفاء الوفـا للسمهودي (٣/٨٩٧).

رسول الله وكفّنها ببُرده ودعا لها، روى ابن شبة عن جابر بن عبد الله قال:

بينا نحن جلوس مع رسول الله ﷺ، إذ أتاه آتٍ فقال: يا رسول الله إنَّ أمَّ عليّ وجعفرَ وعقيل قد ماتت، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى أمي» فقمنا وكأنَّ على رؤوس مَنْ معه الطير، فلما انتهينا إلى الباب نَزَعَ قميصَه فقال: «إذا غسلتموها فأشعروها إياه تحت أكفانها».

فلما خرجوا بها جعل رسول الله ﷺ مرة يحمل، ومرة يتقدم، ومرة يتأخر، حتى انتهينا إلى القبر، فتمعَّك في اللحد ثم خرج فقال: «أدخلوها باسم الله وعلى اسم الله» فلمّا أنْ دفنوها قام قائماً فقال: «جَزَاكِ الله من أم وربيبة خيراً، فنعم الأم ونعم الربيبة كِنتِ لي» قال: فقلنا له أو قيل له: يا رسول الله لقد صنعت شيئين ما رأيناك صنعت مثلهما قط! قال: «ما هما»؟ قلنا: نَزْعُك قميصك وتمعّكك في اللحد، قال: «أمّا قميصي فأريد ألا تمسها النار أبداً إنْ شاء الله تعالى، وأما تمعكي في اللحد فأردتُ أنْ يوسِّعَ الله عليها في قبرها»[1].

وفي رواية أخرى تُضاف إلى كرامة فاطمة وهي أنَّ النّبي ﷺ، اضطجع في لحدها ثم قال: «اللهُ الذي يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقّنها

(١) انظر وفاء الوفا (٣/٨٩٧).

حُجّتها، ووسّع عليها مدخلها؛ بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنّك أرحم الراحمين». ثم كبّر عليها أربعاً فأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصّديق رضي الله تعالى عنهم[1].

* * *

بشارتُها بالجنّة:

* قال تعالى: ﴿وأُدخِل الذين آمنوا وعملوا الصّالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتُهم فيها سلام﴾ [سورة إبراهيم: آية ٢٣].

* الصّحابية الجليلة فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ واحدة من النّساء اللواتي سارعن إلى نصرة الرّسول والإسلام بكل ما تقدر عليه، وقد أسدت صنيعاً طيّباً إلى رسول الله، ووقفت وقفةً مباركة منذ فجر الإسلام إلى أنْ لقيت ربّها في المدينة المنورة.

ورسول الله ﷺ، وهو الكريم الرّحيم لا يضيع الإحسان، ولا ينكر الجميل مع أحد صَنَعَ معه معروفاً أو جميلاً، فكيف بفاطمة بنت أسد التي كانت تقوم مقام أمّه، وهاجرت إلى الله

---

(١) انظر مجمع الزوائد (٩/٢٥٧).

ورسوله[1]، ولم تتوقف عن العطاء يوماً واحداً، ولذلك ذكرها عليه الصّلاة والسّلام بالفضل والخير عندما توفيت، فعن سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ علي ـ رضي الله عنها ـ، دخل عليها رسول الله ﷺ، فجلس عند رأسها فقال:

«رحمك الله يا أمي، كنتِ بعد أمي تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيّباً وتطعميني؛ تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة»[2].

* وقد نالت فاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ البشارة بالجنة، ولنترك سيّدنا عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقصُّ علينا نبأ هذه البشارة العظيمة فيقول:

لما ماتت فاطمة أمّ علي ألبسها النّبي ﷺ قميصه، واضطجع معها في قبرها، فقالوا: مارأيناك يا رسول الله صنعتَ هذا! فقال:

«إنَّه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنّما ألبستُها قميصي لتكسىٰ مِنْ حلل الجنة واضطجعتُ معها ليهوَّن عليها»[3].

---

(١) انظر النجوم الزاهرة (١/١١٩).

(٢) انظر مجمع الزوائد (٩/٢٥٦) وذكر الهيثمي أن الطبراني قد روى الحديث.

(٣)انظر سير أعلام النبلاء (٢/١١٨)، وقد أورده الهيثمي بلفظ قريب

* وأودّ هنا أنْ أوردَ خبراً مباركاً لفاطمة بنت أسد ـ رضي الله عنها ـ ، فقد ذكر صاحب السِّيرة الحلبية نقلاً عن القرطبي في التّذكرة، أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خصّ رسوله الكريم محمداً ﷺ بأنَّه لا يُضغط في قبره، وقد سَلِمَتْ فاطمةُ بنت أسد من ضغطة القبر ببركته ﷺ، حيثُ اضطجع عليه الصَّلاة والسَّلام في قبرها[1].

* وبعد، فهذه فاطمة بنت أسد الصَّحابية الجليلة التي حظيت بتكريم الله وتكريم رسوله فنالت الجزاء الأوفى، ولعلنا ونحن في ختام سيرتها المعطار أنْ نذكر لها منقبة شريفة، وهي أنها مِنْ راويات الحديث، فقد روت عن النَّبي الكريم ﷺ (٤٦) حديثاً، أخرج لها منها في الصَّحيحين حديث واحد متفق عليه.

ولعله من الخير أيضاً أن نذكر هنا ما قاله ﷺ في فضيلة نساء قريش، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحْنَاه[2] على طفل

---

* في مجمع الزوائد (٩/٢٥٧) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وانظر الاستيعاب (٤/٣٧٠) وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٦٨)، ووفاء الوفا (٣/٨٩٨).

(١) انظر السيرة الحلبية (٢/٦٧٣).

(٢) من الحنو: العطف.

في صغره، وأرعاه[1] على زوج في ذات يده»[2] وكان أبو هريرة يقول: ولم تركب مريم ابنة عمران بعيراً قط[3].

* رحم الله فاطمة بنت أسد الصحّابية الخيرة من أهل الجنّة التي صلّت عليها الملائكة، ونضّر الله قبرها.

ومع وداع سيرة هذه الصّحابية المباركة المعطاء نقرأ قوله تعالى:

﴿إنَّ المتَّقين في جنَّات ونهر * في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾ [سورة القمر: الآيتان ٥٤ و ٥٥].

* * *

---

(١) من الحفظ والمراعاة.

(٢) في جامع الأصول لابن الأثير (٩/ ٢١٠) تتمة لقول أبي هريرة وهي: «ولو علمت أنها ركبت بعيراً ما فضلت عليها أحداً».

(٣) رواه البخاري في عدة مواضع في كتاب الأنبياء، والنكاح، والنفقات، ورواه مسلم والإمام احمد أيضاً.

(٣)
أم حرام بنت ملحان
رضي الله عنها

أم حَرَام بنتُ مِلحَانَ
رضي الله عنها

«أولُ جَيشٍ منْ أُمتي يغزونَ البحرَ قَدْ أوجبوا»

قالت أمّ حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنتِ فيهم»

حديث شريف

«أنت منَ الأوّلينَ ولسْتِ منَ الآخِرينَ»

حديث شريف

أُمُّ حَرام بنتُ ملْحَان
رضي الله عنها

السَّابقَةُ السَّابقَةُ:

* أمُّ حرام بنتُ ملحان بن خالد الأَنْصَارية النَّجارية المدنيّة، واحدةٌ مِنْ عليّة النِّساء اللاتي كُتِبَ لهنَّ الخلودُ، وكان لهنَّ شأنٌ بين نساء الإسلام.

* عاصرتْ أمُّ حرام أحداث النُّبوة في المدينة المنورة، وكانت منَ اللاتي حظينَ بشرفِ صحبة رسول الله ﷺ، فقد أسلمتْ وبايعتْ رسول الله، واصطبغت بصِبْغة الإسلام وذاقت حلاوته، فاستقرتْ محبّته في قلبها النقي، وبدأت نفسها الصَّافية تشرق بنور النُّبوة، وتفيض بالبذل والإيثار والخير.

* وأمُّ حرام بنت ملحان إحدىٰ السَّابقات الأنصاريات إلى الإسلام، ومن أوائل النِّساء اللواتي أعلنَّ إسلامهنَّ قبل هجرة

النّبي الكريم إلىٰ المدينة، وهي كذلك مِنَ المؤمنات اللاتي شهد الله سبحانه لهنَّ وللمؤمنين بكمال الإحسان بقوله تعالى:

﴿والسَّابقونَ الأولونَ من المهاجرينَ والأنصارِ والذينَ اتبعوهم بإحسانٍ رضيَ الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنَّات تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً ذلكَ الفوزُ العظيم﴾ [التّوبة: آية ١٠٠].

* * *

الشَّجرةُ الطَّيّبةُ:

* أمُّ حرام بنتُ ملحان أخت الغيمصاء، والغيمصاء هي أمّ سُلَيم بنت ملحان[1] إحدىٰ النِّساء الفاضلات المبشّرات بالجنّة اللاتي تركنَ أثراً مباركاً وضّاءً في عصر النُّبوة.

* وضيفةُ حلقتنا خالة سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وأخت البطلَيْن الشَّهيدين حرام وسُلَيم ابني ملحان بن خالد، شهدا بدراً وأُحُداً، وقُتِلا شهيدين يوم بئر معونة، وحرامُ بن ملحان أخوها؛ هو الذي حمل كتاب رسول الله ﷺ إلىٰ عامر بن الطفيل زعيم بني عامر وأحد الشُّعراء الفرسان،

---

(١) انظر سيرة أم سليم في هذا الكتاب.

فلما أتاه بالكتاب لم ينظرْ فيه حتى عدا على حرام فقتله[1].

ورُوي عن سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ خاله حرام بن ملحان طُعِنَ يوم بئر معونة في رأسه فتلقّى الدمَ بكفِّه وقال: فُزْتُ وربِ الكعبة[2].

* وأمُّ حرام كذلك هي أمّ الشّهيد قيس بن عمرو بن قيس وزوج الشّهيد عمرو بن قيس بن زيد، فقد شهد ابنها قيس بدراً، وشهد مع أبيه أحداً وقُتلا شهيدين يومها ـ رضي الله عنهما ـ .

* وحتى تكتمل أغصان الشّجرة الطّيبة فقد تزوّجها أحدُ أبطال الإسلام وعلمائهم سيّدنا عبادة بن الصامت، وما أدراك ما عبادة! فهو واحدٌ مِمَّنْ شهدوا العقبة مع السّبعين منَ الأنصار وأحد النّقباء الاثني عشر، شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان عقبياً نقيباً بدرياً أنصارياً، فأكرمْ بهذه الأوسمة المباركة.

وأنجبتْ منه ابنها محمّد بن عبادة بن الصّامت، وكان سيّدنا عبادة ـ رضي الله عنه ـ يحسِنُ لزوجه أمّ حرام وإلىٰ ابنها عبد الله بن عمرو بن قيس ربيبه، وكان عبد الله بن

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص ١٨٠).
(٢) انظر الاستبصار (ص ٣٦).

عمرو هذا؛ خيّراً فاضلاً صلىٰ القبلتين، وصحب النّبي الكريم ﷺ وروىٰ عنه[1].

* في هذه البيئة الطّيبة المتفرّعة بالبركة والخير كانت حياة الصّحابية الجليلة أمّ حرام بنت ملحان، ومن زوجها الصّحابي الجليل عبادة بن الصّامت اقتبستْ كلّ معالم الخير والفضائل التي كانت موجودة فيه، فقد كان أحد كُتّاب الوحي، وأحد معلّمي القرآن وجامعيه، وأحد النّجوم الأبرار ليلة العقبة، وبطل الأبطال في بدر أمّ الأبطال، وغيرها من المشاهد، وكان عَلَماً مُنيراً في بيعة الرّضوان، وغير ذلك مِنَ المكارم التي استوحتْها منه، فشاركت في نُصْرة الإسلام ونشره ـ رضي الله عنها وعنه ـ.

* * *

المَكَانَةُ العُلْيَا:

* اشتهرتِ الصّحابية الجليلة أمّ حرام بالتّقوى والورع والفضل، وهي كما قال عنها الإمام الذّهبي رحمه الله تعالىٰ: كانت من علية النّساء[2].

ولذلك كان النّبي الكريم ﷺ يكرمها ويزورها في بيتها في

---

(١) انظر في هذا كتاب الاستبصار (ص ٦٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٣١٦).

قباء[1] ذلك المكان الذي نزل فيه رسول الله ﷺ أول ما هاجر إلىٰ المدينة المنورة.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام إذا ذهبَ إلى قباء استراح عندها، فكانت تكرمه وتُسَرُّ به، وكان رسول الله ﷺ يدخل عليها زائراً وعلى أختها أمّ سليم، حدَّث عن هذا أنس ـ رضي الله عنه ـ فقال: دخل علينا رسول الله ﷺ ما هو إلا أنا وأمّي وخالتي أمّ حرام فقال: «قوموا فلأصلِّ بكم» فصلىٰ بنا في غير وقتِ صلاة[2]. ولما انتهت هذه الصَّلاة دعا لأهل البيت بكل خير من خيري الدُّنيا والآخرة.

ومن الجدير ذكره هنا أنَّ العلماء اتفقوا على أنَّ أمَّ حرام وأمَّ سُلَيم كانتا محرماً لرسول الله ﷺ، فقد ذكر ابن عبد البر أنَّهما كانتا إحدىٰ خالاته من الرَّضاعة، وذكر آخرون أنَّهما كانتا خالتان لأبيه أو لجدّه، لأنَّ عبدَ المطلب كانت أُمُّه من بني النَّجار[3].

* وكانت لأمِّ حرام مكانة كبيرة عند النَّبي الكريم؛ فقد رُوي أنَّه ﷺ كان يدخل على أخت أمِّ سُليم وهي أمّ حرام ـ

---

(١) انظر وفاء الوفا للسمهودي (٣/٨٨٢).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه، باب: جواز الجماعة في النافلة، وانظر الاستبصار (ص ٣٩ و ٤٠).

(٣) انظر النووي على شرح مسلم (١٣/٥٧) وانظر السيرة الحلبية (٣/٧٣).

رضي الله عنها ـ وتفلّي له رأسه الشّريف وينام عندها[1].
روىٰ سيدنا أنس ما يتوافق مع هذا مِنْ حديث؛ فذكر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنتِ ملحان فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحتَ عبادة بن الصّامت، فدخل عليها رسولُ الله ﷺ فأطعمته ثم جلستْ تُفَلِّي رأسَه فنام رسول الله ﷺ[2].

* * *

حُبُّها للجِهَادِ:

* كانتِ الصّحابيةُ الكريمة أمّ حرام ـ رضوان الله عليها ـ تتمنّىٰ أنْ تكونَ مع ركْبِ الشُّهداء، وذلك لِمَا للشُّهداء مِنْ منزلةٍ وكرامة عند الله سبحانه، وكانتِ الشّهادة في سبيل الله نصْبَ عينيها، وحلماً تودُّ تحقيقه، وكثيراً ما كانت تسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يرزقَها الشّهادة إلىٰ أنْ بشّرها رسولُ الله بذلك ودعا لها بالشّهادة[3]، وأخبرها بأنّها شهيدة[4] ستغزو في البحر.

* وفي كتابه النّفيس ـ الاستبصار ـ ذكر ابنُ قدامة

---

(١) انظر نسب قريش (ص ١٢٤) والسيرة الحلبية (٣/٧٣).
(٢) انظر دلائل النّبوة للبيهقي (٦/٤٥٠)، وانظر وفاء الوفا (٣/٨٨٢).
(٣) الاستيعاب (٤/٤٢٤).
(٤) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٠٣).

المقدسي ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ حرام كانت تُدعىٰ الشَّهيدة لحديثٍ روته عن رسول الله ﷺ يبشِّرُها فيه أنَّها مِنَ الأوَّلين(١).

* * *

من مَنَاقِبِهَا:

لأمِّ حرام ـ رضي الله عنها ـ مناقبُ تفيضُ بالبركة، وتتَّسِم بالكرم؛ فمن ذلك أنَّها كانت حافظةً واعيةً لحديث رسول الله ﷺ، روت عنِ النَّبي الحبيب ﷺ خمسة أحاديث، أخرج لها منها في الصَّحيحين حديثٌ واحد متفق عليه(٢)، وروى عنها زوجُها سيِّدنا عبادة بن الصَّامتِ ـ رضي الله عنه ـ، وسيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وروىٰ عنها كذلك عُمير ابن الأسود وعطاء بن يسار ويعلىٰ بن شداد بن أوس(٣) وغيرهم.

* ومما يُضَاف إلى مناقب أمِّ حرام رضوان الله عليها، البذل والإيثار لرسول الله ﷺ والقيام على خدمته كلَّما زارها، وفضيلة الجود والإيثار منْ صفات الأنصار الذين كانوا يؤثرون علىٰ أنفسهم غيرهم، وخاصَّة المهاجرين من صحابة رسول

---

(١) انظر نسب قريش (ص ١٢٥).

(٢) المجتبى (ص ١٠٥). وقيل أنها روت سبعة أحاديث.

(٣) انظر الإصابة (٤/٤٢٤) وتاريخ الإسلام (٢/٣١٨).

الله ﷺ، وهذا بلا شك يدلُّ على صفاء النَّفس من أكدار الدُّنيا وزُخْرفها، ويدلُّ على قوة الرُّوح والبعد عن الشُّح، لأنَّ الشُّحَ داءٌ عُضَال لا يصدر عنه خير، وقد سجَّلَ الله سبحانه هذه الميزة المباركة للأنصار فقال: ﴿والذينَ تبوؤوا الدَّار والإيمان مِنْ قبلهم يحبّونَ مَنْ هاجرَ إليهم ولا يجدون في صُدورهم حاجةً مما أُوتوا ويؤثرونَ على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئكَ همُ المفلحون﴾ [سورة الحشر: آية ٩].

* * *

بشارتُهَا بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يُـدخِلُ الـذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ جنَّاتٍ تجري منْ تحتها الأنهار يُحلّونَ فيها مِنْ أساورَ منْ ذهب ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حرير * وهُدوا إلى الطَّيِّبِ منَ القول وهُدوا إلىٰ صراط الحميد﴾ [الحج: آية ٢٣ و ٢٤].

* الصَّحابيةُ المِعْطاء أمُّ حرام ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ واحدة من النِّساء اللائي عُرفنَ بنقاء السَّريرة وصدْقِ الإيمان، والإخلاص في العبادة، فحملَها الشوقُ إلى الجنَّة، وكانت تطلب مِنَ الله الشَّهادة في سبيله، وسألتِ النَّبيَّ الكريمَ أنْ يدعو الله لها ليجعلَها مِنَ الشُّهداء فدعا لها بذلك، فاستطار

قلبُها فرحاً واستبشاراً بذلك، واستقرَّت صورةُ الشَّهادة في أعماقها، وباتت ترجوها، فالرَّسول الكريمُ ﷺ لا ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحيٌ يُوحىٰ علَّمه شديد القوىٰ.

* وانتقل النَّبي الكريم ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى وهو راضٍ عن أمِّ حرام، وجاء عهدُ الخلفاء الرَّاشدين رضوان الله عليهم، وكانت أعظم الفتوحات، ولما كان عهد سيِّدنا عثمان ابن عفان ـ رضوان الله عليه ـ، استمرتِ الفتوحات وتوسَّعت، وفي سنة (٢٧) هجرية غزا سيِّدُنا معاوية بن أبي سفيان قبرص في البحر، وخرجت أمُّ حرام ـ مع زوجهاعبادة ـ رضي الله عنهما ـ غازية في البحر، وهنا حملتها الذِّكريات إلى أعوام مضت، وتذكَّرت بشارة النَّبي الكريم ﷺ بأنَّها ستغزو في البحر وستكونُ شهيدة.

ولنتركِ الآنَ حديث البشارة ترويه لنا صاحبة البشارة نفسها أمّ حرام ـ رضي الله عنها ـ، فقد ذكر عُمير بن الأسود العنسي أنَّه أتىٰ سيِّدنَا عبادَة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ وهو بساحلِ حمصَ وهو في بناء له ومعه امرأته أمّ حرام، قال عُمير: فحدثَتْنَا أمُّ حرام أنَّها سمعتْ رسول الله ﷺ يقول: «أولُ جيش مِنْ أمتي يغزون البحَر قد أوجبوا» ـ أي وجبت لهم الجنّة ـ قالت أمُّ حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنتِ فيهم»[1].

---

(١) رواهُ البخاري في كتاب الجهاد برقم (٢٩٢٤) باب: فيما =

* وتحققت أمنيةُ المجاهدة أمّ حرام بالاستشهاد أثناء غزو البحر، إذا صُرِعَتْ عن دابّتها حينما خرجت مِنَ البحر حيث رمتها بغلة لها فماتت ـ رضي الله عنها ـ .

ولنستمعْ إلى سيِّدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ يحدّثنا عن قصّة استشهاد خالته أمّ حرام فيقول: دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان، فاتكأ عندها ثم ضحك.

فقالت: لِمَ تضحك يا رسول الله؟

فقال: «ناس من أمتي يركبون البحرَ الأخضر[1] في سبيل الله مَثَلُهُم مَثَلُ الملوك على الأسرة».

فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أنْ يجعلَني منهم.

فقال: «اللهمّ اجعلها منهم».

ثم عاد فضحك، فقالت له: مثل أو مم ذلك؟.

فقال لها: «مثل ذلك».

فقالت: ادعُ الله أنْ يجعلني منهم.

قال: «أنتِ من الأولين ولَسْتِ منَ الآخرين».

قال أنس: فتزوّجت عبادة بن الصّامت، فركبتِ البحرَ مع

ـ قيل في قتال الروم، وانظر جامع الأصول (٩/١٤٩ و ١٥٠)، وانظر صفة الصفوة (٢/٧٠) وانظر تاريخ الإسلام (١/٣٩٥).

(١) هو البحر الأبيض المتوسط.

بنت قرظة[1]، فلما قفلت ركبت دابّتها، فَوَقَصت[2] بها فسقطت عنها فماتت[3].

* وهكذا نالت أمّ حرام الجنّة وحظيت بالشّهادة كما أخبرها بذلك رسولُ الله ﷺ.

* * *

مِنْ كَرَامَاتِهَا بَعْدَ مَوتِهَا:

* للشُّهداء مكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، وأمُّ حرام الشّهيدة قد أكرمها اللهُ بعد موتها، وفي قبرصَ قبرٌ يُدعىٰ بقبر المرأةِ الصّالحة، ومنَ الطّريف أنَّ البلاذريّ قد ذكر في كتابه «فتوح البلدان» خبراً مباركاً فقال: لما غُزيت قبرس ـ قبرص ـ الغزوة الأولىٰ ركبت أمّ حرام بنت ملحان مع زوجها عبادة بن الصّامت، فلمّا انتهوا إلى قبرصَ خرجت منَ المركب، وقُدِّمتْ إليها دابّة فعثرتْ بها فقتلْتها، فقبرُها بقبرصَ يُدعىٰ قبر المرأة الصّالحة[4].

وذكر أبو الحسن ابن الأثير وغيره خبر تلك الغزوة فقالوا:

---

(1) هي فاختة بنت قرظة زوجة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(2) أي وثبت ورمتها.

(3) رواه البخاري في كتاب الجهاد، والإمام مسلم في كتاب الإمارة، وانظر البداية والنهاية (٦/٢٢٢)، ومجمع الزوائد (٩/٢٦٣)، وانظر كذلك دلائل النبوة للبيهقي (٦/٤٥٠و ٤٥١ و ٤٥٢).

(4) فتوح البلدان (١/١٨٢)، وانظر كذلك الأعلام للزركلي (٢/١٨٢).

وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدُفنت فيها، وكـان أميرُ الجيش معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمانَ ومعه أبو ذر وأبـو الدَّرداء، وغيـرهما من الصَّحـابة وذلـك سنـة سبـع وعشرين[1] التي توافق سنة (٦٤٧) من الميلاد.

* ومن الأخبار المباركةِ ما ذكره هشام بن الغاز إذْ قَال: قبرُ أمِّ حرام بنت ملحان بقبرس وهم يقولون هذا قبرُ المرأة الصَّـالحـةِ رحمها الله[2].

* وقال هشامٌ أيضاً: رأيتُ قبرها ووقفتُ عليه بالسَّاحلِ بقاقيس[3] سنة إحدىٰ وتسعين. وقال الذَّهبي رحمه الله: وبلغني أنَّ قبرَها تزوره الفِرنج[4]. وذكر الزَّبيدي ـ رحمه الله ـ في تاج العروس كرامتها ومشاهدتُه للجزيرة فقال: ولها مقام عظيمٌ بظاهرِ الجزيرة، اجتزتُ بها في البحر عند توجُّهي إلى بيتِ المقدسِ، وأُخبِرْتُ أنَّ علىٰ مقامها أوقافاً هائلةً وخدماً وينقلون عنها كرامات.

* وذُكِرَ عن كرامة أمّ حرام أنَّ النَّـاسَ يقولونَ: هذا قبرُ المرأةِ الصَّالحة وهم يعظِّمونَه ويستسقون به.

---

(١) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٠٣)، والنجوم الزاهرة (١/٨٥)، وانظر الأعلام للزركلي (٢/١٨٢).

(٢) انظر الحلية (٢/٦٢) وصفة الصفوة (٢/٧٠) وورد في معجم البلدان قبرس بالسين.

(٣) انظر صفة الصفوة (٢/٧٠) ودلائل النبوة للبيهقي (٦/٤٥٢).

(٤) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٣١٧).

* ومن الخير هنا أنْ نُوردَ ما علّقَ بـه الدّكتـور وهبة الزُحيلي علىٰ الاستسقاء بالصّالحين وزيارتهم فيقول: لا شكَّ بأنّه ليس تعظيم عبادة وشرك، وإنّما حبٌّ واحترام، وأمّا الاستسقاء بالصّالحين أو التّوسل فهو كالاستسقاء بالعبّاس عمّ النّبي ﷺ الثّابت في الآثار، والمرجع في الحقيقة هو الله، والذي دلَّ عليه القرآن الكريم هو دعاء الله مباشرة دون توسل[1].

* وبعد، فهذه لمحات عبِقة شذيّة من حياة هذه الصّحابية التي عاشت حميدةً، وماتت شهيدةً، وتحقّقت بشارةُ النّبي ﷺ بأنّها «مَلكٌ على سرير»؛ فقد كانت أول مجاهدةٍ في البحر، وأول مَنْ غزت في البحر الأبيض المتوسط منَ النّساء ـ رضي الله عنها ـ.

* رحم الله أمّ حرام بنت ملحان ورضي عنها، ورحم الله أبا نعيم الذي استهلّ ترجمته لأمّ حرام بقوله: حميدةُ البرِّ، شهيدةُ البحر، التّواقة إلى مشاهدة الجِنَان، أمّ حرام بنت ملحان[2].

* ونحن في وَدَاع سيرتها الطّيّبة نقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤ و ٥٥].

* * *

(١) عن كتاب عبادة بن الصّامت للزّحيلي (ص ٢٩).
(٢) الحلية (٢/٦١).

أم عمارة
نسيبةُ بنتُ كَعْبٍ
رضي الله عنهاً

«اللهُمَّ اجْعَلْهُم رفقائي في الجنَّة»

حديث شريف

قال رسول الله ﷺ يوم أحد عن نسيبة:

«ما التفتُّ يميناً ولا شِمالاً إلاّ وأنا أراها تُقاتِلُ دُوني»

حديث شريف

أم عمارة
نسيبَةُ بِنتُ كَعْب
رضي الله عنهاً

المُجدَّةُ المُجتَهِدَةُ:

* الحديثُ عن هذه الصَّحابية شائقٌ وجميل، آسرٌ للنفس بقدْرِ ما هو مؤثّر فيها، فقد أخذتْ من كل فضيلة بطرف.

* إذا تحدثت عن الأمِّ المثالية، وجدتَ الأمَّ الـرؤوم.

* وإن تحدثتَ عن الزَّوجـة الوفيّـة، جاءت في أُولىٰ الأسماء.

* وإن تحـدثتَ عن السَّبْقِ إلى الإيمـان، كـانت مِنَ الأوائل.

* وإن طلبتها في الجهاد، ألفيتَها من الأبطال المعدودين الذين ينافحون عن رسول الله ﷺ.

* أمَّا إذا بحثت عن العبادة والنُّسك، ألفيتَها قانتةً عابدة.

* وإذا سألتَ عن الحديث وعن العلم، وجدتها محدِّثةً راويةً متقنة لحديثِ رسول الله ﷺ.

* فأيّ امرأة هذه التي جَمَعتْ هذه الفضائل كلّها؟! وإن شئتَ فقُلْ: جُمِعتْ فيها هذه المكارم.

* لا شك ـ عزيزي القارىء ـ أنّه شاقك معرفة هذه الصَّحابية الجليلة. الإمام أبو نُعيم الأصبهاني يصفُها في حليته بقوله: أمُّ عمارة المبايعة بالعقبة، المحاربة عن الرِّجال والشّيبة؛ كانت ذات جدٍّ واجتهاد، وصوم ونسك واعتماد.

* والآن، نستضيفُ الإمام شمس الدِّين الذَّهبي ليعرّفنا صحابية اليوم فيقول: أمُّ عمارة نَسِيبةُ بنتُ كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول، . . . الفاضلةُ المجاهدةُ الأنصاريـة الخزرجيّة النَّجارية المازنية المَدَنية[1].

* إذن، فهذه الصَّحابية الفاضلةُ من الأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن بني النَّجار الكرام أخوال النَّبي الحبيب ﷺ الذين نزل في ديارهم عند الهجرة الشَّريفة.

* رسمت نسيبة[2] بنت كعب ـ في حياتها ـ صفحات من

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٢٧٨).

(٢) نسيبة: ضَبَطَها بفتح النون وكسر السين كل من الفيروزابادي في القاموس المحيط، والزبيدي شارح القاموس، والأمير ابن ماكولا،

البطولة؛ ظلتِ الأجيال ترويها جيلا بعد جيل بإعجابٍ وتقدير، وظلتْ نسيبةُ تحظىٰ بالمكانة اللائقة بين نساء الإسلام، من يوم أنْ بايعت العقبة إلى حين وفاتها، إلىٰ أنْ يرثَ الله الأرض ومن عليها.

* * *

وامرأتَان:

* يذكرُ معظم المؤرخينَ وكتّاب التّراجم وأصحاب السِّير والمغازي، أنَّ الأنصار الذين حضروا بيعة العقبة الثّانية ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، وقد تكفَّلَ الإمام محمّد بن إسحاق في السِّيرة النّبويةِ بسرد أسمائهم وقبائلهم، وتابَعَه على ذلك المؤرخون ومنهم الإمام ابن كثير في البداية والنِّهاية[1].

* أمّا المرأتان: فالأولىٰ ضيفة حلقتنا هذه، وهي أمُّ

= وابن الجوزي في صفة الصفوة. بينما ضبطها غيرهم بضم النون بالتصغير وهو المشهور، والعرب تميل إلى التصغير في هذا الشأن.
ذكر الزبيدي في التاج فقال: نَسيبة بنت كعب أم عمارة، ونَسيبة بنت سماك بن النعمان بفتح النون.
ونُسيبة بنت نيار، ونُسيبة بنت الحارث أم عطية بضم النون. وهن صحابيات رضوان الله عليهن أجمعين. (عن تاج العروس ٤/٢٦٤ طبعة الكويت).

(١) البداية والنهاية (٣/١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨).

عمارة نسيبةُ بنت كعب المازنية النَّجارية، والأخرىٰ أمُّ منيع أسماء بنت عمرو بن عدي السُّلمية ـ رضي الله عنهما ـ .

في تلك الليلة المباركة بزغ نجمُ أمِّ عمارة، وأشرقت نفسُها بالإسلام من قبل على يدي الصَّحابي الجليل سيِّدنا مصعب بن عمير سفير رسول الله ﷺ، الذي أثْرىٰ المدينة بأخلاقه العطرة، وأثَّرَ في نفوس أهلها ببيانه السَّاحرِ وحُجَّته اللطيفة وأسلوبه الآسر الهادىء، وهو من نجباء مدرسة النُّبوة، ومن تلاميذ النَّبي الكريم ﷺ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

* * *

البيعَةُ المُباركَةُ:

* في تلك الليلة المباركة، كان رسول الله ﷺ قد أخذ العهد على الأنصار بأنْ يبايعوه، وتكلَّم ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلىٰ الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أنْ تمنعوني مما تمنعون من نساءكم وأبنائكم»[1].

وأجاب الأنصار ليلتئذٍ، وأقبلوا على مبايعةِ رسول الله ﷺ، وتمَّتِ البيعةُ، وبايعت أمُّ عمارة رسول الله ﷺ على ما بايع

(١) السيرة الحلبية (٢/١٧٥).

عليه النِّساء[1]، وفتحَ التَّاريخُ صفحة مباركة، سجَّل فيها هذه البيعة، وجاء فيها اسم نسيبة بنت كعب إحدىٰ نساء الأنصار اللائي واكبن مسيرةَ الإسلام في العهد المدني كله، وعن هذه البيعة العظيمة تتحدث أمُّ عمارة فتقول: شهدتُ عَقْدَ النَّبي ﷺ والبيعة له ليلة العقبة، وبايعتُ تلك الليلة مع القوم[2].

* ولكنْ كيف بايعت أمُّ عمارة رسول الله ﷺ، والرَّسول الكريم لا يصافحُ النِّساء؟ أمُّ عمارة نفسُها تحدثنا عن صفة بيعتها فتقول: كانتِ الرِّجالُ تصفِّقُ على يَدي رسول الله ﷺ ليلة العقبة، والعبَّاس ـ عمُّ النَّبي ـ آخذٌ بيدِ رسول الله ﷺ، فلمّا بقيتُ أنا وأمُّ منيع نادى زوجي غزية بن عمرو: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك، فقال: «قد بايعتُهما على ما بايعتكم عليه، إنِّي لا أصافح النِّساء»[3].

* ولما رجع الأنصار من العقبة إلى المدينة، شاركت أمُّ عمارة في نشر الإسلام بين نساء الأنصار، وعزّزت إيمان ولديها وأهلها وقومها.

* * *

---

(1) انظر أنساب الأشراف (1/250).

(2) طبقات ابن سعد (8/412).

(3) رواه الإمام مالك في الموطأ في كتاب البيعة، والإمام أحمد في مسنده، وانظر الإصابة (4/457).

أسرتُها:

* كانت أمُّ عمارة متزوجةً من زيد بن عاصم المازني النَّجاري، فولدت له عبد الله وحبيباً، وصحِبَا النَّبِي الكريم ﷺ، ثم خلف عليها غزية بن عمرو المازني النَّجاري، فولدت له خولة، وكان لأولادها وأسرتها شأن كبير في الإسلام.

وفي تاريخ التَّضحية والثَّبات أبدَعَ حبيبٌ ابنها إبداعاً مباركاً بقي أريجه المعطار يرطِّبُ الأسماعَ إلى يومنا هذا.

* * *

مشَاهدُهَا:

* ذكر المؤرخون وكتَّاب التَّراجم والسِّير أنَّ الصَّحابية الجليلة أمَّ عمارة شهدت عدة مشاهدَ مع رسول الله ﷺ وهي: بيعة العقبة، وأحد، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضية، والفتح، وحُنين[1]. وكانت ممن شارك في حرب المرتدين في يوم اليمامة، والقضاء على مسيلمة الكذاب وأعوانه.

* في كتابه القيم «سير أعلام النُّبلاء»: ذكر الإمام الذَّهبي

---

(١) انظر في هذا طبقات ابن سعد (٨/٤١٢)، وصفة الصفوة (٢/٦٣)، والإصابة (٤/٤٥٧)، والأعلام للزركلي (٨/٣٣٤).

جهادَ أمّ عمارة ومشاهدها فقال: شهدتْ أمُّ عمارة ليلة العقبة، وشهدت أحداً والحديبية ويوم حنين، ويوم اليمامة، وجاهدت، وفعلت الأفاعيل.

* وفي هذه المشاهد كانت أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ تسجِّلُ المواقفَ الوضّاءة واحداً بعد الآخر، وهي أولُ مقاتلة في تاريخ الإسلام.

ومن الطّريف أنَّها بايعتِ النَّبي الكريمَ ﷺ على النُّصرة ووفَّت بهذا في غزوة أحد، فأحسنت وأجادت، بل كان لها من المواقف العظيمة يومذاك ما جعلها تنال البشارة بالجنة مع أسرتها كلها، فإلىٰ تلك المواقف المباركة الوضَّاءة نجد فيها مقام الصَّحابية الكبيرة قربَ رسول الله ﷺ، ذلك المقام الذي سبقت فيه كثيراً من النَّاس.

* * *

مواقفُهَا وبُطُولاتُها يومَ أُحُدٍ:

* لأمّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ بطولاتٌ رائعةٌ، ومواقفُ نادرة في غزوة أحد، وكل موقف منها يفيض بركةً بالتضحية وحبّاً ووفاءً لرسول الله ﷺ، وفي الصَّفحات التَّالية نلمس بركة هذه المواقف.

أمُّ عمَارة قُرْبَ الرّسول ﷺ:

* في غزوة أحد، خرجتِ الأسرةُ المؤمنة: أمُّ عمارة وولداها عبد الله وحبيب وزوجها، واندفع زوجها وأولادها يجاهدون في سبيل الله، بينما ذهبت أم عمارة تسقي العطشى وتضمِّدُ الجرحى، ولكنَّ ظروفَ المعركة جعلتها تقبلُ على محاربة المشركين، وتقف وقفة الأبطال تدافع عنِ رسول الله ﷺ غير هيّابةٍ ولا وجلة وذلك عندما تفرّقَ النّاس؛ من هول ما أصابهم في ذلك اليوم، عندها أخذت سيفاً وترساً ووقفت بجانبِ رسول الله ﷺ تقيه بنفسها، ولنستمع من أمّ عمارة تصف لنا ذلك الموقف الرّهيب وتلك السّاعة العسرة فتقول:

رأيتُني وانكشفَ النّاس عن رسول الله ﷺ؛ فما بقي إلا في نُفَير ما يتمون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذُبُّ عنه ـ ندافع عنه ـ والنّاس يمرُّون به منهزمين، ورآني ولا ترس معي، فرأىٰ رجلاً مولياً ومعه ترس فقال: «ألقِ ترسَك إلى مَنْ يقاتل» فألقاه، فأخذته فجعلتُ أُترسُ به عنَ رسول الله ﷺ، وإنّما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم إنْ شاء الله[1].

* وفي هذا الموقفِ يلاقي أحد فرسان المشركين حَتْفَه

---

(١) انظر سير إعلام النبلاء (٢/٢٧٩)، والمغازي (١/٢٧٠).

على يدي أمّ عمارة، ولنتابعِ السَّماعَ من أمّ عمارة لتكمل لنا بقية القصة فتقول:

ويقبِلُ رجلٌ على فرس فيضربني، وترّستُ له فلم يصنعْ شيئاً وولّى، فأضربُ عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النَّبي ﷺ يصيح: «يا ابن أمّ عمارة، أمّك أمّك» قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شَعوب[1].

* إنَّ الإنسانَ ليدهش ويُسَّرُ في آنٍ واحد لشجاعة أمّ عمارة التي لا نكاد نجد لها مثيلاً في تاريخ النِّساء، بل إنَّ لهذه الصَّحابية تاريخاً حافلاً بالعطاء مرصَّعاً بالجهاد، يزينُ جِيْدَ الدهر بجماله وصفائه، وفي الموقف التالي نرى مصداق ذلك.

* * *

استَقَدْتِ يا أمّ عَمَارة:

* مرة ثانية نرى أمّ عمارة حول الرَّسولِ ﷺ وقد رآها عليه الصَّلاة والسَّلام، والدم ينزفُ من كتفها، ولكن هذا لم يجعلها تتوقفُ عن الجهاد، بل ازدادت إصراراً على متابعة القتال حتى حظيت بدعاء الرَّحمةِ من رسول الله ﷺ، يحدثنا عبد الله بن زيد ـ ابنها ـ عن ذلك فيقول:

شهدتُ أُحُداً مع رسول الله ﷺ، فلمّا تفرَّقَ النَّاس عنه،

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٤١٤). والشعوب: من أسماء المنية، تعني قتلته.

دنوتُ أنا وأمّي نذبُّ عنه فقال: «ابن أمّ عمارة»؟ قلتُ: نعم، قال: «ارمِ». فرميتُ بين يديه رجلاً مِنَ المشركين بحجر وهو علىٰ فرسٍ فأصبتُ عينَ الفرس، فاضطرب الفرسُ حتى وقع هو وصاحبه، وجعلتُ أعلوه بالحجارة حتى نضدتُ عليه منها وِقْراً - حملاً كبيراً - والنَّبي ﷺ ينظرُ يبتسم، ونظر جُرْحَ أُمّي على عاتقها فقال: «أمّك أمّك، اعصبْ جرحَها، رحمكم الله أهل البيت، ومقام ربيبك - يعني زوج أمه - خيرٌ من مقام فلان وفلان رحمكم الله أهلَ البيت»[1].

* ثم بعد ذلك دعا النَّبي الكريم ﷺ لهذه الأسرة بمرافقتِه في الجنَّة، وما إن سمعت أمّ عمارة وابنها هذا الدعاء المبارك الطَّيب حتى انطلق كل واحد منهما يضاربُ ويقاتل، ولقيَ عبد الله به زيد رجلاً من المشركين، فضربه المشرك فجرحه جرحاً بليغاً في يده اليسرى ثم تركه ومضى بعيداً، وجعل الدمُ ينبعثُ من الجرح بكثرة، فرآه رسول الله ﷺ وقال: «اعصبْ جرحَكَ». ولمحت أمُّ عمارة ابنها والدم يتدفقُ من جرحه، فأقبلتْ وأخرجتْ عصائبَ قد أعدّتها لِلجراح، وربطت جرحه، وكان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ ينظر إلى هـذين البطلَيْن، ثم قالت لابنها: انهض بني فضاربِ القومَ، فسُرَّ الرَّسول الكريم ﷺ وجعل يقول: «ومَنْ يطق ما تطيقين يا أمَّ عمارة»؟.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٤١٤ و ٤١٥).

* وظلت أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ قريبةً من النَّبي الكريم ﷺ، والسَّيفُ مُصْلتٌ بيدها تخطف به مَنْ يـودُّ الاقترابَ من رسول الله ﷺ بسوء، ولم تمضِ لحظات حتى أقبل المشركُ الذي جَرَحَ ولدها، ورآه النَّبيُّ الكريم ﷺ فقال لها: «هذا ضارب ابنك» واعترضته أمّ عمارة وضربته على ساقه فوقع، ثم أجهز عليه النَّاس بالسِّلاح حتى مات، فقال لها رسول الله ﷺ: «استقدتِ يا أمّ عمارة».

* وتصفُ أمُّ عمارة سرور النَّبي ﷺ لتلك الحادثة فتقول: رأيـتُ رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجذه.

ويقبلُ رسول الله ﷺ على أمّ عمارة قائلاً: «الحمد لله الذي أظفرك وأقرَّ عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك»[1].

* وبهذا نالت أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ الثَّناء العَطِرَ من رسول الله ﷺ، كما نالت شهادة الشَّجاعةِ منَ الدَّرجةِ الأولى أيضاً، روي أنَّ سيِّدَنا عمر بن الخطاب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما التفتُّ يوم أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتلُ دوني»[2].

---

(1) عن طبقات ابن سعد (٨/٤١٤) بتصرف. وانظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٨٠)، وأعلام النساء (٥/١٧٣).

(2) انظر حياة الصحابة (١/٥٩٥)، والإصابة (٤/٤٥٧)، وطبقات ابن سعد (٤/٤١٥).

* وروىٰ عمارة بن عربة ـ ابنها ـ أَنَّ أمَّه قَتَلَتْ يوم أحد فارساً من فرسان المشركين[1].

* * *

أُمُّ عمارةَ تَصدُّ هُجُوماً:

* لم تتوقفِ الصَّحابيةُ البطلة أمّ عمارة لحظةً واحدة في الدِّفاع عن رسول الله ﷺ، بل جُرِحتْ بضعة عشر جرحاً منها جرحٌ أجوف كبير أصابها به ابن قميئة، ولنترك إحدىٰ الصَّحابيات تجري هذا اللقاء الطَّريف مع أمِّ عمارة التي تروي ذكرياتها عن بطولاتها يوم أحد، والرَّاوية هي أمّ سعد ابن سعد بن الرَّبيع ـ رضي الله عنها ـ وعن أبيها، تقول أمُّ سعد:

دخلتُ على أمِّ عمارة فقلتُ لها: حدثيني خبرَكِ يوم أحد، فقالت نسيبةُ:

خرجتُ في أول النَّهار إلى أحدٍ وأنا أنظرُ ما يصنعُ النَّاس ومعي سِقَاءٌ فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ والدَّولةُ والرِّيحُ للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلىٰ رسول الله ﷺ؛ فجعلتُ أباشر القتال وأذبُّ عن رسولِ الله بالسَّيف وأرمي بالقوس حتى خَلُصتْ إليَّ الجراح.

---

(١) الإصابة (٤/٤٥٧).

وتصف راويةُ الخبرِ أمُ سعد بـن سعد جُرْحَ أمّ عمارة فتقول: فرأيتُ علىٰ عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلتُ: يا أمّ عمارة مَنْ أصابك بهذا؟ وهنا تصفُ أمّ عمارة صدَّها لهجومِ عدو الله عمرو بن قميئة فتقول:

أقبلَ ابن قميئة ـ أقمأه الله ـ وقد ولّىٰ النَّاسُ عن رسول الله ﷺ وهو يصيح: دلوني على محمّد فلا نجوتُ إنْ نجا، فاعترضتُ له أنا ومصعبُ بن عمير ـ رضي الله عنه ـ، وأناس ممَّنْ ثبتَ مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولقد ضربتُه على ذلك ضربات ولكنَّ عدوَّ اللهِ كانت عليه درعان[1].

ومن عظمِ تلك الجراحِ وتلك الضربة غُشي على أمِّ عمارة، ولما أفاقت لم تسأل عن زوجها أو عن ابنها، وإنّما قالت: أينَ رسول الله وما صنع المشركون معه؟ فأجابوها بقولهم: إنَّه بخير والحمد لله.

الله أكبر ما أعظم هذه المواقف الفياضة بالحبِّ والفداء للنَّبي الكريم ﷺ.

*** وإزاء هذه البطولات المباركة كانت نسيبة تنال الثَّناء تلو الثَّناء مِنْ رسول الله ﷺ، فقد سمعتْ رسول الله ﷺ يمتدحُ**

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٨/٤١٣)، والبداية والنهاية (٤/٣٤)، والإصابة (٤/٤٥٧)، وعيون الأثر (٢/٢١) بتصرف يسير.

عملها ويثني على جهادها يوم أحد حيث قال: «لمقامُ نسيبة بنت كعبٍ اليوم خيرٌ مِنْ مقام فلان وفلان»[1].

* نعم فقد كانت أمُّ عمارةَ ـ رضوان الله عليها ـ تقاتلُ في ذلك اليوم أشدَّ القتال، وكانت قد شدَّتْ ثوبَهاعلى وسطِهَا، وكانت حصيلة غزوة أحد ثلاثة عشر جرحاً، أعظمها ذلك الذي أصابها به ابن قميئة في عاتقها وظلّت تداويه سنة كاملة[2]، غير أنَّ آثار الجرح ظلت تشهد لها بالشَّجاعة والإقدام طيلة حياتها المعطاء.

* * *

أمُّ عَمارةَ ونِسَاءُ قُرَيْش:

* موقفانِ مختلفانَ يستحقانِ الوقوفَ والتمعُّن، موقف أمّ عمارة ونساء المسلمين اللائي خرجن لغايات نبيلة، ومنهن مَنْ قاتلت حتى جُرحت كأمِّ عمارة، وموقفٌ آخر هو موقف نساء قريش اللواتي خرجنَ بصحبةِ الدُّفوف والحقد يملأُ نفوسهن، والمكاحل والمراود تملأُ جيوبهن، وقد وصفت أمُّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ نساء قريش وصفاً دقيقاً معبراً، ففي لقاءٍ مباركٍ كانت أمُّ عمارة تُسأَلُ فيه عن بطولاتها وعن ذكرياتها يوم أحد، سُئلتْ عن نساء قريش فقيل لها: يا أمّ

---

(١) و (٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٨ و ٢٧٩).

عمارة هل كنَّ نساء قريش يومئذٍ يقاتلن مع أزواجهن[1]؟ فقالت أمُّ عمارة: أعوذ بالله، لا والله ما رأيتُ امرأةً منهن رمتْ بسهَم ولا حجر، ولكنْ رأيتُ معهن الدِّفافَ والأكْبَار يضربن ويذكِّرنَ القوم قتلى بدر ومعهن مكاحلَ ومراودَ، فكُلَّما ولَّى رجل أو تكعكع ناولَتْهُ إحداهن مِروداً ومكحلة ويقلن: إنَّما أنتَ امرأة. ولقد رأيتُهن ولَّينَ منهزماتٍ مشمرات، ولَهَا ـ سها ـ عنهن الرجالُ أصحاب الخيل ونَجَوا على متون الخيل، وجعلن يتبعن الرِّجال على أقدامهن، فجعلن يسقطن في الطريق، ولقد رأيتُ هندَ بنت عتبة وكانتِ امرأة ثقيلة ولها خَلْقٌ، قاعدةً خاشيةً من الخيل ما بها مشي، ومعها امرأة أخرى حتى كثُرَ القوم علينا، فأصابوا منا ما أصابوا، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ[2].

* * *

بَعْدَ غزوة أُحد:

* عاد الرَّسولُ الكريم ﷺ إلىٰ المدينة يوم غزوة أحد،

(1) من النساء اللاتي خرجن مع المشركين يوم أحد هند بنت عتبة، وأميمة بنت سعد، وبرزة بنت مسعود الثقفي، والبغوم بنت المعذل، وسلامة بنت شهيد، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة وغيرهن، وانظر أسماءهن في المغازي (١/٢٠٢ و٢٠٣).

(2) عن المغازي (١/٢٧٢)، وأعلام النساء (٥/١٧٣ و ١٧٤) بتصرف يسير جداً.

وعادت أمُّ عمارة تحمل آلام بضعة عشر جرحاً، ولكنَّ المعركةَ لا تزال مستمرةً، فقد نادىٰ منادي النَّبي الكريم ﷺ إلى حمراء الأسد قائلاً: إنَّ رسول الله يأمركم بطَلَبِ عدوكم ولا يخرج معنا إلا مَنْ شهدَ القتال بالأمس.

* ليلة واحدة قضاها المجاهدون في دورهم يداوون جراحهم، وفي الصَّباح؛ خرج المسلمون إلى حمراء الأسد، ونهضتِ الصَّحابيةُ المجاهدة أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ لتؤديَ واجب الجهاد، وشدَّتْ عليها ثيابها، ولكنَّ نزفَ الدمِ عوَّقها عن ذلك فما استطاعتِ الخروج.

* ولما رجع النَّبي الكريمُ ﷺ من حمراء الأسد، وما أن وصل إلى بيته حتى أرسلَ إليها عبد الله بن كعب المازني ـ أخاها ـ يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها فسُرَّ بذلك النَّبي ﷺ[1].

* وقد ظلت أمّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ تعالج جراحتها سنة كاملة حتى التأمت، وظلَّ النَّبي الحبيبُ ﷺ يهتمُّ بأمرها ويسأل عنها وعن أصحابه كلِّهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ، كما ظلَّ عليه الصَّلاة والسَّلامُ يذكر فضلَها، ويثني على بلائها وشجاعتها.

* وهكذا رأينا مواقفَ أمّ عمارة الوضّاءة في أُحُد، تلك

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٤١٣).

الغزوة التي أوجبت فيها، كما أوجب فيها كثير من صحابة رسول الله ﷺ فنالوا الجنّة ببركة دعائه ﷺ، وبصدقِ قلوبهم ونقاء نفوسهم، والله ذو فضلٍ على المؤمنين.

* والآن، ماذا تبقّىٰ في جعبة أم عمارة عن الجهاد؟ لا شك أنَّ رحلةَ جهادها لم تتوقفْ في أُحُد، بل استمرت إلى نهاية حياتها، وفي الصَّفحات التَّالية نتابع هذه الرحلة الشَّائقة في مقام الجهاد، ونرىٰ بطولات أخرى للصَّحابية الجليلة أم عمارة ـ رضي الله عنها ـ.

رحْلَةُ الجهَاد:

* وتمضي الأيام، ويخرجُ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ لغزوِ بني قريظة الذين نقضوا العَهْدَ مع الله ورسوله، وترافقه الصَّحابية الجليلةُ أمّ عمارة في هذه الغزوة المباركة، وأعطىٰ رسول الله ﷺ النِّساء اللائي حضرن القتال من الغنيمة، ولم يُسْهِم لهن.

أمُ عمَارةَ وبيعَةُ الرِّضْوَان:

* لأمِّ عمارةَ ـ رضوان الله عليها ـ ذكرياتٌ مباركةٌ في بيعة الرِّضوان ـ وما أدراكَ ما بيعة الرِّضوان ـ فقد بايعتْ ـ رضي الله عنها ـ مع مَنْ بايع، وها هي تروي خبر تلك البيعةعند الحديبية، عندما بعث رسول الله ﷺ سيِّدنا عثمانَ بن عفان

إلى مكةَ، وتأخَّرَ خبره، تقولُ أمُّ عمارة:

مَرَّ بنا رسولُ الله ﷺ يوماً في منزلنا، فإذا هو قد بلَغَه أنَّ عثمانَ بنَ عفانَ ـ رضي الله عنه ـ قد قُتِلَ، فجلس في رحالنا ثمَّ قال: «إنَّ الله أمرني بالبيعة» فأقبلَ النَّاس يبايعونه في رحالنا، . . . . فكأنّي أنظرُ إلىٰ المسلمين قد تلبّسوا السِّلاح وهو معنا قليل، إنَّما خرجنا عُمّاراً، فأنا أنظرُ إلى عربة بن عمرو ـ زوجها ـ وقد توشح بالسَّيف، فقمتُ إلى عمود كنا نستظلُّ به، فأخذتُه في يدي ومعي سكين قد شددته في وسطي، فقلتُ: إنْ دنا مني أحد رجوتُ قَتْله، فكان رسول الله ﷺ يومئذٍ يبايعُ النَّاس وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ آخذ بيده، فبايعهم على ألاّ يفرّوا[1].

* ونالت أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ رضاءَ الله مع المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشَّجرة ﴿لقد رضيَ اللهُ عن المؤمنينَ إذْ يبايعونَك تحتَ الشَّجرةِ فَعَلِمَ ما في قلوبهم فأنزلَ السَّكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ [الفتح: ١٨].

* وفي الحديبية نالت أمّ عمارة مكرمةً أخرىٰ، فقد حَلَقَ رسولُ الله ﷺ رأسه، وتسابق النَّاس للتَّبركِ بأخْذِ شعره الشَّريف، وتحدثنا أمُّ عمارة عن ذلك فتقول: وجعل النَّاس

---

(١) المغازي (٢/٥٢٢).

يأخذونَ الشَّعر من فوق الشَّجرة فيتحاصون فيه ـ يقتسمونه ـ وجعلتُ أزاحم حتى أخذتَ طاقاتٍ مِنْ شعر[١].

* وذُكر أنَّ أمّ عمارة ظلت تحتفظُ بشعْـر النَّبيِّ ﷺ، وكانت تضعه في الماء ثم تسقيه للمريضِ تبرُّكاً بآثار رسول الله ﷺ.

* * *

في غَزْوة خَيْبَرَ:

* خرج النَّبي الكريمُ ﷺ إلى خيَبر، وخرج معه من المدينة عشرون امرأة، منهم أمُّ المؤمنين أمّ سلمة، وأمُّ عمارة بطلة الجهاد، وعدد آخر منْ نساءِ المهاجرين والأنصار، وفُتحت خيبر، وقد وصَفت أمُّ عمارة المغانم التي غنمها المسلمون في أحَدِ حصون خيبر، وقد أعطىٰ رسول الله ﷺ النِّساء اللائي كُن معه بعض الغنائم، وأخذت أمُّ عمارة نصيبها من مغانم خيبر خرزاً وبعضَ الملابس ودينارين، ذَكَر أخوها عبد الله بن كعب هذا فقال:

رأيتُ في رقبة أمِّ عمارة خرزاً حمراً فسألتُها عن الخرز فقالت: أصابَ المسلمون خرزاً في حصن الصَّعبِ بن معاذ ـ أحد حصون خيبر ـ دُفِنَ في الأرض، فأُتي به إلىٰ رسول الله

(١) المغازي (٢/٦١٥).

ﷺ، فأمرَ بمَنْ معه مِنَ النِّساء فأُحْصِين، فكنا عشرينَ امرأة، فقسم ذلك الخرز بيننا هذا وأرضخ لنا منَ الفيء قطيفة وبرداً يمانياً وديnارين وكذلك أعطى صواحبي[1].

أُمُّ عمارةَ في عُمْرة القَضيّة:

* عندما أزمعَ رسولُ الله ﷺ على عمرة القضاء خرجت معه أُمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ لتنالَ ثواب الله سبحانه ومرضاة رسوله الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام، وتروي أُمُّ عمارة بنفسها عن أدائها هذه العمرة فتقول:

شهدتُ عمرةَ القضيةَ مع رسول الله ﷺ، وكنتُ قد سهدتُ الحديبية، فكأنّي أنظر إلىٰ النَّبي ﷺ حين انتهىٰ إلى البيت، وهو على راحلته، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته، وقد صفَّ له المسلمون حين دنا من الركن حتى انتهى إليه[2]. .

. . وتروي أمُّ عمارة أنَّه لم يتخلفْ احدٌ من أهل الحديبية عن عمرة القضية إلا مَنْ ماتَ أو قُتِلَ.

* وهكذا فقد جَمعتْ أمُّ عمارة إلى مكارمها مكرمةً أخرى تفيض بالخير والبركات، كما تفيض بالعلم ورواية الحديث الشَّريف.

---

(١) المغازي (٢/٦٨٨).

(٢) المغازي (٢/٧٣٥).

مِنْ بُطولاتِهَا يَوْمَ حُنَين:

* كانت لأمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ بطولاتٌ وضّاءةٌ يوم حُنين لا تقلُّ روعةً عن بطولاتها في يوم أحد، ومن الطّريف انّ أمّ عمارةَ أبدعت في الغزوتَيْنِ، وقتلتْ رجلاً مِنَ المشركين بسيفها، وشاركها في هذه المعركة ولداها عبد الله وحبيب ـ رضي الله عنهما ـ.

* وفي حُنين يتكرّرُ الموقف نفسه الذي حدث في أحد، فينهزمُ بعض المسلمين لهولِ المفاجأة، وهنا تبرزُ البطلةُ أمّ عمارة لتؤدي واجبها وتصْدُق ما عاهدتِ اللهَ عليه، وها هي تروي جانباً من تلك الغزوة وتتحدث عن دورها فتقول:

لما كان يومئذٍ والنّاس منهزمون في كل وجه، وأنا وأربع نسوة، في يدي سيف لي صارم، وأمّ سليم[1] معها خنجر قد حزمته على وسطها، وأمّ سليط وأمّ الحارث، وأصيحُ بالأنصار: أية عادة هذه! ما لكم وللفرار، وأنظرُ إلى رجل من هوازنَ على جمل أَوْرَق، معه لواء يضع جمله في المسلمين، فأعترضُ له فأضربُ عرقوب الجمل، وكان جملاً مشرفاً ـ عالياً ـ فوقع الجملُ، ووقع الرّجل وأشدُّ على الرّجل، فلم أزل أضربه حتى أثبته ـ تركته جريحاً لا يقدرُ على القيام ـ وأخذتُ سيفاً له وتركتُ الجمل يخرخر يتصفق ـ ينقلب ـ

---

(١) اقرأ سيرتها وبطولاتها في هذا الكتاب.

ظهراً لبطن، ورسول الله ﷺ قائمٌ مُصْلِتٌ السَّيفَ بيده، قد طرح غمده ينادي: «يا أصحاب سُورة البقرة»، وكرَّ المسلمون فجعلوا يقولون: يا بني عبد الرحمن، يا بني عُبيد الله، يا خيل الله! وكان رسول الله ﷺ قد سمّىٰ خيله خيل الله، وجعل شعار المهاجرين بني عبد الرحمن، وجعل شعار الأوس بني عبيد الله.

فَكَرَّتِ الأنصارُ ووقفت هوازن مقدار حَلْب ناقة، ثم كانت الهزيمةُ، فوالله ما رأيتُ هزيمةً كانت مثلها ذهبوا في كلّ وجه، ورجع ابناي إليّ - حبيبُ وعبدُ الله ابنا زيد - بأسارىٰ مكتَّفين فأقومُ إليهم من الغيظ، فأضربُ عنقَ واحدٍ منهم، وجعل النَّاس يأتون بالأسارى، فرأيت في بني مازنَ بنِ النجار ثلاثين أسيراً، وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكة، ثم كرّوا بعد وتراجعوا، فأسهم لهمُ النَّبي ﷺ جميعاً[1].

* وفي هذه الغزوة تختم أمّ عمارة - رضي الله عنها - رحلة جهادها مع رسول الله ﷺ، ولكنَّ حبُّ الجهاد ظل يسري في عروقها، وسنرىٰ جانباً منه يوم اليمامة إنْ شاء الله.

الصَّابِرَة أمُّ الشَّهِيْدِ:

* هذه الصَّحابيةُ الجليلة مَضرِب المثل في كلِّ مكرمة، فكما احتلت مكان الصَّدارةِ في الشَّجاعة والفداء، احتلت

---

(١) عن المغازي (٣/٩٠٢ و ٩٠٣) بتصرف يسير.

أيضاً مكاناً علياً في مقام الصَّبر، وذلك في سبيل الله سبحانه وتعالى، حيث قُتِلَ حبيبٌ ابنها فاحتسبته صابـرة عند الله سبحانه.

* ولاستشهاد ابنها حبيب بن زيـد ـ رضي الله عنه ـ قصة شائقة تنبىء عن موقف مبارك لا يقلُّ روعةً عن مواقف أمِّه المجاهدة أمِّ عمارة ـ رضي الله عنه ـ، بل لا يقلُّ روعةً وثباتاً عن موقف سيِّدنا بلال بن رباح[1] ـ رضوان الله عليه ـ عندما صَبَرَ وصَمَدَ في سبيل الله، فكلا الموقفين يشيرُ إلى مكانة هذَيْنِ الصَّحابيين الجليليْنِ، ويدلُّ على مكانةِ ومنزلة الصَّابرة المؤمنة أمِّ شهيد الحقِّ نسيبة ـ رضي الله عنها وارضاها ـ .

* وقصة استشهاد حبيب بن زيد ذكرها الرُّواة وكتَّاب التَّراجم والسِّير، وأثنَوْا على حبيبٍ وأمِّه فقالوا: إنَّ مسيلمةَ الكذَّاب وَفَدَ مع بني حنيفة على رسول الله ﷺ وخلَّفُوه في رحالهم، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا، ولما رجعوا إلى منازلهم بنَجْدٍ ارتدَّ مسيلمةُ وزعم أنَّه نبيٌّ مرسلٌ إلى بني حنيفة، وتبعه بعض قومه بدوافعَ مضطربةٍ أهمُّها العصبية، واستشرى خطر مسيلمة، وعاث في الأرض فساداً.

وهنا برز الشَّهيدُ السَّعيدُ الصَّامدُ ابن أمِّ عمارة حبيب بن زيد، أحد نجباء مدرسة النُّبوة، الذي رضع الإيمان، وفُطِمَ

---

(١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ في كتابنا رجال مبشرون بالجنة جزء (١).

على التّقوى،وشبَّ على الجهاد، وعاش في حجر أمّه يتعلّمُ الخير، وشهد أحداً وما بعدها، فاختاره رسول الله ﷺ؛ ليؤدي رسالة إلى مسيلمة الكذاب يزجره فيها عن ضلاله وكذبه وغيِّه، ولم يَرْعَ مسيلمة حرمة الرُّسل بل قبض عليه وأوثقه، فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهدُ أنَّ محمّداً رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهدُ أنّي رسول الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمعُ، فَعَلَ ذلك مراراً فقطّعه مسيلمة عضواً عضواً ومات شهيداً[1]، وصَعِدَتْ روحه إلى بارئها راضيةً مرضيةً.

وقد رثاه مالك بن عمرو الثّقفي[2] بأبياتٍ رائعةٍ منها:

مضىٰ صاحبي قبلي وخُلِّفتُ بعده
فكيف بأعضائي البقيـةِ أصنَعُ

وقـال لـه الكـذَّابُ تشهـد أنّني
رسـولٌ فـأوما أنّني لسـتُ أسمـعُ

فقـال أتشهـدُ أنَّهـا لـمحمـدٍ
فنادىٰ بدعوىٰ الحقِّ لا يتتعتع[3]

---

(١) انظر الاستيعاب (٣٢٧/١)، وأسد الغابة ترجمة حبيب، والاستبصار (ص ٨١ و ٨٢)، والحلية (٦٤/٢).

(٢) انظر ترجمة مالك بن عمرو في الاستيعاب (٣٥٠/٣) وفي الإصابة (٣٢٩/٣).

(٣) لا يتتعتع: العي بالكلام.

فضـرَّبَ أمَّ الـرَّأسِ فيــه بسيفـه
غويٌّ لحاه اللهُ بـالفَتْكِ مُـولَعُ[1]

* وانتشر خبر استشهاد حبيب ـ رضي الله عنه ـ ، ولما بلغ أمَّ عمارةقَتْلُ ابنها عاهدتِ الله أنْ تموتَ دون مسيلمة أو تُقتلَ، ورضيتْ بقضاء الله، وصبرت صبراً جميلاً، فقد نذرت نفسها وأولادها وما تملكُ لله سبحانه وتعالى، لتكون في جنَّات وعيون، ويكفيها الآن أنَّ النَّبي الكريم ﷺ قد دعا لها ولآل بيتها بالبركة والخيرات، ومات عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهو راضٍ عنها وعن أولادها.

بَطَلَةُ اليَمَامَةِ:

* هو ذا جيشُ المسلمين يتَّجهُ ـ بأمر الصِّديق أبي بكر ـ لقتال مسيلَمة الكذاب، وجاءتِ الصَّحابيةُ المجاهدة أمّ عمارة، إلىٰ سيدنا أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وطلبتْ أنْ يأذنَ لها بالخروج إلى اليمامة، فقال رضي الله عنه وأرضاه: قد عرفنا جزاءك في الحرب فاخرجي على اسمِ الله، ثم أوصى سيِّدَنا خالدَ بنَ الوليد قائِد الجيش بأمِّ عمارة ـ وكان مستوصياً بها ـ .

وانطلقتْ أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ لتتحفَنا بمواقفَ مضيئةٍ أخرى، وأسرعت لتفي بنذرها لا لتثأر لابنها حبيب

---

(١) انظر كتاب منح المدح لابن سيد الناس (ص ٣٠١ و ٣٠٢).

فحسب، فحبيبٌ قد لقي ربّه، وفاز بمرضاته، بل لتشارك في القضاء على جرثومة الكفر والرِّدة التي انبعثت في شخص مسيلمة الكذاب ومن تبعه مِنْ قومه.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ عمرها آنذاك قد زاد عن السِّتين واشتعل رأسُها شيباً، لكنَّ قلبها اشتعل حماساً وامتلأ إيماناً، ولم يوهنِ العظمُ منها أو تضعف عزيمتها، وفي اليمامة جاهدت أروع جهاد، وجُرحت أحد عشر جرحاً وقُطعت يدها، ولكنها لم تكترثْ بما أصابها، بل كانت تريد أنْ تلقى عدو الله مسيلمة، وبصرتْ بابنها عبد الله ومعه سيوف المسلمين تنهل من دماء مسيلمة، عندها سرى شعور بالسُّرور إلى نفسها، وأحست بالسعادة لقطع دابر الردة إلى غيرِ رجعة، وقد رُوي عنها أنَّها قالت في هذا: قُطِعتْ يدي يومئذٍ فما ألويتُ عليها، ثم أتيتُ ابني فوجدته قد قَتَلَ مسيلمة وهو يمسح سيفه من دمه[1]. . . ثم سَجَدَتْ شكراً للهِ سبحانه وتعالى.

* وعادتِ المجاهدةُ المؤمنةُ أمّ عمارة إلى منزلها بعد انتهاء هذه الحرب، وجاءها سيّدنا خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ينفِّذُ وصيةَ سيدنا أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ،

---

(١) انظر الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (ص ٨٢)، وانظر السيرة الحلبية (٥٠٩/٢)، واقرأ مقتل مسيلمة الكذاب في البداية والنهاية (٣٢٣/٦) وما بعدها.

وطلبَ مِنَ العربِ مداواتها بالزيتِ المغلي، فكان أشدّ عليها من القطع، ولكنّها شعرت براحةٍ عظيمة تغمر نفسها، لقد سبقها عضو منها إلى الجنّة، يدُها التي طالما دافعتْ بها عن رسول الله ﷺ. وكان سيّدُنا خالد كثير التّعاهد والبرّ بها، حَسَنُ الصُّحبة لها، يعرف حقّها ويقدِّرُ مكانتها ويحفظ فيها وصيّة النّبي ﷺ ووصية الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ.

مَعَ الصِّديقِ والفَارُوقِ ـ رضي الله عنهما ـ:

* كانتْ أمُّ عمارة ـ رضوان الله عليها ـ تحظىٰ بالمكانة اللائقة في ظلّ الخلفاء الرّاشدين، فقد كان سيّدُنا أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ يسأل عنها دائماً ويتفقّدُ أحوالها، روىٰ محمّد بن يحيىٰ بن حبان هذا فقال:

جُرحتْ أمُّ عمارة بأحد اثني عشر جرحاً، وقُطعت يدُها يوم اليمامة، وجُرحت يوم اليمامة سوى يدها أحد عشر جرحاً، فقدمتِ المدينةَ وبها الجراحة، فلقد رُئيَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو خليفة يأتيها يسألُ عنها ـ رضي الله عنهما ـ[1].

* وفي عهد سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ ظلتِ الصّحابيةُ المجاهدة تحظىٰ بالمكانة نفسها، فعن موسى ابن حمزة بن سعيد عن أبيه قال:

أُتيَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بمروط، فكان فيها

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٨١).

مِرْطٌ جيد واسع، فقال بعضهم: إنَّ هذا المِرْطَ لثمن كذا وكذا فلو أرسلتَ به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أَبْعثُ به إلىٰ مَنْ هو أحقُّ به منها، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: «ما التفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتلُ دوني»[1].

* وبقيتْ أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ تحظى بالاحترام والتقدير مِنْ جميع الصَّحابة إلى آخر لحظة من حياتها في المدينة المنورة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

أمُّ عَمَارةَ والقُرآن الكريم:

* في الصَّفحات السَّابقةِ، عشنا سعداءَ مع جهاد أمِّ عمارة في أُحُد وفي اليمامة، وشهدنا معها بيعة الرضوان، والمواقف الأخرى المشرقة، والآن نعيش لحظات في ظلال الذِّكر الحكيم مع الصَّحابية المؤمنة أمِّ عمارة.

* فقد ذُكر أنَّ أمَّ عمارةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت للنَّبي الكريم ﷺ: يا رسول الله، ما أرىٰ كل شيء إلا للرجال، وما أرى النِّساء يُذكرن بشيء[2]. فنزلتْ هذه الآية الكريمة:

(١) انظر أنساب الأشراف (١/٣٢٦).

(٢) انظر كتاب: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين للشيخ عبد الفتاح القاضي (ص ١٨٠)، والاستبصار (ص ٨٣)، والاستيعاب (٤/٤٥٦).

﴿إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقينَ والصَّادقاتِ والصَّابرينَ والصَّابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدقينَ والمتصدقاتِ والصَّائمينَ والصَّائماتِ والحافظين فروجَهم والحافظاتِ والذَّاكرينَ اللهَ كثيراً والذَّاكراتِ أعدَّ اللهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أمُّ عمارةَ والحَديثُ النَّبويُّ:

* بالإضافةِ إلى حبِّها للقرآنِ الكريم كانت أمُّ عمارة راويةً للحديث النَّبوي الشَّريف، فقد ذكرَ الذَّهبي ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ عمارة قد روي لها أحاديث[1]. روىٰ عن أمِّ عمارة ابن ابنها عبَّاد بن تميم بن زيد، وابن أخيها الحارث بن عبد الله ابن كعب، وعكرمة مولى ابن عباس، وأمّ سعد بنت سعد بن الرَّبيع، كما روىٰ لها الإمام التِّرمذي والنَّسائي وابن ماجه في سننهم.

* ومن مرويات الصَّحابية التَّقية المؤمنة أمّ عمارة أنَّ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٨)، وانظر في هذا أيضاً تهذيب التهذيب (١٢/٤٧٤)، والإصابة (٤/٤٠٤). ذكر محمد بن علان الصديقي الشافعي في كتابه النفيس المبارك «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» أن أم عمارة روى لها أصحاب السنن ثلاثة أحاديث وذكر حديث الصيام. انظر دليل الفالحين (٧/٧٤).

النبي ﷺ دخل عليها فقدمتْ إليه طعاماً فقال: «كلي» فقالت: إنّي صائمةٌ، فقال: «إنَّ الصَّائمَ إذا أُكِلَ عنده صلَّتْ عليه الملائكة»[1].

* وأخرج ابن منده عن أمِّ عمارة بنت كعب قالت: أنا أنظرُ إلى رسول الله ﷺ وهو ينحر بدنة قياماً بالحربة[2].

بِشَارَتُها بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿يومَ ترى المؤمنينَ والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنَّات تجري مِنْ تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ [الحديد: ١٢].

* تحتلُّ أمُّ عمارة نسيبة بنت كعب ـ رضي الله عنها ـ مكانةً عاليةً بين النِّساء الصَّحابيات، فقد قدَّمتْ للإسلام كل ما تستطيع لتكون كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى.

وفضلها في مجال العبادة والصَّلاح يفوح بالطِّيب، وقصص جهادها وثباتها إمتاعٌ للأسماع، وظلت تجودُ بالعطاء المثمر

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وانظر طبقات ابن سعد (٨/٤١٦)، والاستيعاب (٤١٦)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٣١١).
(٢) المغازي (٢/٦١٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٥٤٣).

في جميع المجالات إلى أنْ لقيت ربَّها راضية مرضية ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ[1].

* أمّا عن بشارتها العظمى، فقد نالت ذلك في يوم أحد مع أهل بيتها، حيث قال لهم النَّبيُّ الكريم ﷺ وهم حوله عند اشتداد المعركة: «رحمكم الله أهلَ البيت» فقالت له أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ: ادعُ الله أنْ نرافقَك في الجنّةِ، فقال ﷺ: «اللهمَّ اجعلهم رفقائي في الجنةِ» فقالت: ما أبالي ما أصابني من الدُّنيا[2].

* وقد حظيت نسيبة مِنْ قبل أحد ببشارتها بالجنَّة ـ عند العقبة ـ فهي عقبية، كما حظيت بعد أحد ببشارة عظمى وشهادة إلهية موقّعة من ربِّ العالمين بالرِّضوان وذلك في بيعةالرضوان، وفي حُنين كانت مِنَ المائة الصَّابرة الـذين تكفَّل الله بأرزاقهم وأرزاق عيالهم في الجنَّة.

* والآن، فهذه رحلة شائقة قضيناها في رحاب الصَّحابية أمّ عمارة الأنصارية الكريمة المعطاء، هذه الصَّحابية كانت مِنَ الأنصار الذين قال فيهم كعب بن زهير يذكر فضلَهم وأعمالهم الطَّيبة مع النَّبي الكريم ﷺ:

---

(١) ذكر الزركلي في الأعلام (٣٣٤/٨) أنها توفيت سنة ١٣ هجرية.

(٢) انظر المغازي (٢٧٣/١)، وطبقات ابن سعد (٤١٥/٨)، وسير أعلام النبلاء (٢٨١/٢)، والسيرة الحلبية (٥٠٩/٢).

أُمُّ رُومَانَ بِنْتُ عَامِر
رضي الله عنها

«مَنْ سرَّهُ أنْ ينظرَ إلى امرأةٍ من الحُور العِين فلينظر إلى أمِّ رُومَان»
حديث شريف

«اللهمَّ إنَّه لم يخْفَ عليكَ مَا لقِيتْ أمّ رُومان فيكَ وفي رسولك»
حديث شريف

أُمُّ رُومَانَ بنتُ عَامِر
رضي الله عنها

أمُّ الفَضَائل:

* نحن الآن في رحاب صحابية جليلة، حظيت بمكانة عاليةٍ في نفْسِ رسول الله ﷺ، وكان لها منزلة كبيرة بين نساء الإسلام اللاتي أثْرَيْنَ التَّاريخ بمواقفهنَّ العطرةالتي يفوحُ شذاها على مرِّ الأيام.

* اجتمعت في هذه الصَّحابية خصالٌ مباركة جعلتْها من سادة نساء الدُّنيا، بل خصلة واحدة جعلتها من عليـة النِّساء.

* فصهرُها أفضل خلق الله على الإطلاق، نبينا محمّد ﷺ، فهل بعد هذا مِنْ فضل؟.

* وزوجها سيِّدُنا أبو بكر الصِّديق - رضي الله تعالى عنه -.

* وابنتها زوجة أشرف الخلقِ في الدُّنيا والآخرة، حبيبة رسول الله ﷺ، الصِّديقة بنت الصِّديق الأكبر، حاملة شهادة

الطُّهارة مِنَ الله، أمّ المؤمنين عائشة، أفْقَه وأعْلَم نساء الأمّةِ على الإطلاق، رضي الله عنها وأرضاها.

* أمّا ابنها فهو أحد فرسان مدرسة النُّبوة، وأحد الصَّحابة الكرام الذين كُتبتْ لهم السّعادة بصحبة المصطفى ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أحد الرُّماة الشُّجعان.

* أضف إلى ذلك كله، أنّها افتتحت أول صفحات حياتها عند أبي بكر الصديق بالمسارعة إلى الإسلام، والإيمان برسالة النّبي الكريم محمّد ﷺ.

* أعتقد أنّك أيّها القارىء الكريم في شوق لمعرفة بطاقة هذه الصَّحابية الجليلة. عَدَدٌ مِنَ الفُضلاء يتسابقون لتقديم هذه الصَّحابية المعطاء؛ فهي أمُّ رومانَ بنتُ عامر بن عُويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة الكِنانية[1]، قال ابنُ عبد البر في الاستيعاب: يُقال: أمُّ رُومان بفتح الرَّاء وضمها، وذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ أنَّ اسمها زينب، وذكر آخرون أنَّ اسمها دعد[2]، ولكنَّ الذي اشتهرت به كنيتها أمّ رومان.

حَيَاتُها في الجَاهِلِيَّةِ:

* في منطقة السَّراة[3] من جزيرة العرب، نشأت أمُّ

(١) انظر مثلاً سير اعلام النبلاء (٢/١٣٥)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٤٢)، وأنساب الأشراف (١/٤٠٩).

(٢) انظر الإصابة (٤/٤٣٣).

(٣) انظر مادة «سراة» في معجم البلدان (٣/٢٠٤ و ٢٠٥).

رومان بنت عامر، وتزوجتْ رجلاً يُدعى عبد الله بن الحارث ابن سخبرة الأزدي[1]، فولدت له الطّفيل بن عبد الله، وكان زوجها عبد الله بن الحارث يرغبُ في الإقامة بأمّ القُرى مكة، فقدم من السَّراةِ ومعه أمّ رومانَ وولدهما الطفيل، وعلى ما جرت عليه عادات العرب عَصْر ذاك في الحلف، رأىٰ أنَّ أبا بكر خير حليف فحالفه، واستقرَّ بأسرته في مكةَ، ثم لم يلبثْ أنْ توفي هناك، وبقيتْ زوجه وطفلها دون معيل لهما. ولكنَّ امَّ رومانَ لم تبقَ وحيدةً، فتزوّجها أبو بكر وأكرمَ مثواها مع ابنها الطفيل، وأصبحت تعيش في كنف أبي بكر في بيته، وولدت له عبد الرحمن وعائشة زوج النّبي ﷺ.

* ومن المفيد ذكره هنا أنَّ أبا بكر قد تزوّج في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزّى القرشية العامرية فولدت له عبد الله وأسماء.

* وتزوّج أبو بكر في الإسلام أسماء بنت عُميس ـ رضي الله عنها ـ فولدت له محمداً، وتزوّج حبيبة بنت خارجة، فولدت له بعد وفاته بنتاً اسمها أم كلثوم، وقد توفي عن واحدة هي حبيبة بنت خارجة.

أمُّ رومانَ مِنَ السَّابقاتِ:

* قالتِ الصِّديقةُ بنت الصِّديق حبيبةُ حبيبِ الله المبرأة

---

(١) انظر أنساب الأشراف (١/ ٤٢٠).

من السَّماء[1]: «لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدِّين»[2].

* إذن فإسلام الصَّحابية الجليلة أمّ رومان كان مبكراً، فما إنْ بُعِثَ رسولُ الله ﷺ حتى كان أبو بكر أول مَنْ آمن وصدَّق دعوته مِنَ الرِّجال، وانطلق يفضي إلى زوجه أمّ رومانَ بخبر الإسلام، وسرعان ما استجابت ووجدت دعوة الإسلام إلى قلبها النَّقي سبيلاً، فآمنت وصدَّقت، وعكفت على عبادة الله سبحانه، فكانت من رعيل المؤمنات الأُوَل اللائي حظين بشرف الصُّحبة النَّبوية، وفُزْنَ بالسَّبق والإيمان، وذكر ابن سعد هذا فقال: أسلمت أمُّ رومانَ بمكة قديماً وبايعت وهاجرت[3].

* وطفقت أمُّ رومانَ تتلقى تعاليم الإسلام غضة، وترىٰ عظمة الإسلام مِنْ رسول الله ﷺ، فقد كان رسول الله يتردد على صَدِيقه وصدِّيقه أبي بكر، فكانت أمُّ رومان تشعر بالسُّرور لهذه الزِّيارة المباركة، وتبذل ما بوسعها لإكرامه، وقد حبا الله هذه الصَّحابية نفساً صافيةً، وقلباً حانياً امتلأ إيماناً وتسليماً، كما رزقها الله همةً عاليةً وصبراً عجيباً على تحمُّلِ المصاعب.

* وكانت أمُّ رومان تتألم كثيراً لما يحلُّ بالمسلمين

---

(1) كان الإمام مسروق بن الأجدع الكوفي ـ رحمه الله ـ إذا حدث عن السيدة عائشة وصفها بتلك الصفة الجميلة المباركة.

(2) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/١٨٣).

(3) الطبقات الكبرى (٨/٢٧٦).

المؤمنين من العذاب من الأيدي الآثمة المشركة، وكانت ترىٰ الرَّسولَ الكريم ﷺ يُعلِّم أصحابه دروساً في الصَّبر، وضربت أروع الأمثلة في الوفاء للإسلام والمسلمين، وكانت تُسَرُّ من زوجها أبي بكر وهو ينقذ المستضعفين ويعتقهم مِنْ خالص ماله، فتشدُّ من أزره وتشاركه عمله الطَّيِّب المبارك ولو بالكلمة الطَّيبة.

المؤمنَةُ التَّقية والأُمّ المثاليّة:

* كانت أمُّ رومانَ بالإضافة إلى سابقتها ووفائها مثال الأُمّ الحانية الـرَّؤوم، فقد راحت تربّي ولديها عبد الرحمن وعائشة على التَّقوى، وحبِّ الله ورسوله، وتحسن رعايتهما أحسن رعاية، وكأن إحساسَها ونفسَها الصَّافية المشرقة يشيران إلى أنَّ ابنتها عائشةَ ستكون ذات شأن في الإسلام.

* وكان النَّبي الكريم ﷺ يختلف إلى بيت أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في النَّهار، وبكرةً وعشياً، ويوصي أمَّ رومان بعائشَة ويقول: «يا أمّ رومانَ استوصي بعائشة خيراً واحفظيني فيها»[1]. فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها ولا يشعرون إلا بأمرِ الله فيها.

الحَماةُ الكَريمَةُ:

* توفيت أمُّ المؤمنين ـ خديجة بنت خُويلد ـ رضي الله

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٨٧).

عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنين، فلبث رسول الله ﷺ سنتين ثمَّ عقد على عائشةَ بوحي من الله سبحانه وتعالى، وقد أخبر النَّبي الكريم عن هذا حينما قال لعائشة ـ رضوان الله عليها ـ : «أُريتُكِ في المنام ثلاث ليال جاءني بكِ الملَكُ في سَرقة مِنْ حرير فيقول: هذه امرأتُك، فأكشفُ عن وجهك فإذا أنتِ هي فأقول: إنْ يكُ هذا من عند الله يُمْضِه»[1].

* وتأتي خولةُ بنت حكيم إلىٰ رسول الله ﷺ وتعرض عليه الزَّواج من عائشةَ بنت الصِّديق، ومن سودةَ بنت زمعة المؤمنة المسلمة، فوافق عليه الصَّلاة والسَّلام، وهنا برزت أمُّ رومان لتحمل أعظم شرف تحظىٰ به امرأة ألا وهو مصاهرة رسول الله ﷺ، وأخبرت زوجَها أبا بكر برغبة النَّبي الكريم ﷺ، وبما أدخل الله عليهم بهذا النَّسب مِنَ الخير والبركة، وتمَّ أمرُ الله، وأضحت عائشة واحدة من أمّهات المؤمنين، بينما سعدت أمُّ رومان بهذا الحدث المبارك وهذا الشَّرف الذي لا يدانيه شرف.

أمُّ رُومانَ وأَحْداثُ الهِجْرة:

* خرج أبو بكر الصِّديق مع رسول الله ﷺ مهاجراً إلىٰ المدينة، وترك أسرته في مكة لتلحق به، وكانت أمُّ رومانَ ـ

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي، وانظر أيضاً البداية والنهاية (٣/ ١٣٠).

رضي الله عنها ـ تتحمّل شدّة العيش؛ بعد هجرة زوجها الذي احتمل معه ماله كلّه، ولكنّ هذا كلّه لم يكن يهمّها، بل كانت ترجو أنْ يسلَم رسولُ الله ﷺ من أيدي المشركين وأذاهم، وصبرت على خوف إلىٰ أنْ جاء مَنْ يُخبر بأنَّ رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة آمناً مطمئناً، ومن ثم أرسل النَّبيُّ الكريم مَنْ يأتي بأهله وبناته، ويأتي بأهل أبي بكر وأفراد أسرته أيضاً.

* وجاء الركبُ المهاجر، وفي الطَّريق حدثت كرامة عظيمة لأمِّ رومان ـ رضي الله عنها ـ، فقد تعرضت ابنتُها عائشة لخطر كبير أنقذتْها منه عنايةٌ إلهية، حيث شَرَدَ بعائشةَ ـ العروس المهاجرة ـ وأمّها الجمل، فجعلت أمُّ رومانَ تقول: واعروساه وابنتاه.

وتروي أمُّ المؤمنين عائشة هذه الحادثة فتقول عندما شرد الجمل: فسمعتُ قائلاً يقول: أرسلي خطامَه، فأرسلتُ خطامَهُ فوقفَ بإذنِ الله وسلّمنا اللهُ عزَّ وجَل[1].

* ووصل الرّكب المهاجر إلىٰ المدينة وفي مقدمته أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ، ونزلتْ في البيت الذي أعدَّه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، وبعد أنْ أعزَّ الله سبحانه النَّبي الكريم في غزوةِ بدر تزوَّج عائشة في شوال من السَّنة الثَّانية

---

(١) عن البداية والنهاية (٣/٢٢١)، والاستيعاب (٤/٤٣٤)، والسيرة الحلبية (٢/٢٧٤).

للهجرة النَّبوية الشَّريفة، وكانت أمُّ رومان قد هيَّأتْ عائشةَ لتكون في بيت النُّبوة، ومن ثم غدا بيتُ عائشة مهبط الوحي جبريل عليه السَّلام، فأكرِمْ بهذه المنزلة!.

أمُّ رومانَ والمحَنةُ الكُبْرىٰ:

* كانت أمُّ رومانَ - رضي الله عنها - تشعر بالسُّرور لما كانت تراه مِنْ إكرام صهرها رسول الله لوحيدتها عائشة، وتتعاظمُ سعادتها لمحبة النَّبي الكريم لعائشة - رضي الله عنها -، وكانت تزداد صفاءً وعبادةً لله لاقترابها مِنَ البيت النَّبوي، ولمكانتها الرَّفيعة عند رسول الله ﷺ الذي كان يجلُّها ويحترمها.

* وتمضي السنون، فإذا بأمِّ رُومانَ أمام محنة رهيبة عكَّرت صفاء حياتها لأيامٍ معدودات، وكانتِ المحنةُ سحابةً داكنةً لقيَتْ خلالها التَّعب وشعرت بثقل الأيام والسَّاعات، فقد رُميتْ ابنتها الصِّديقة بنت الصِّديق بالإفك، وكادتِ أمُّ رومان أن تفقد صوابها لِما أشاعه أصحاب القلوب المنافقة الحاقدة بقيادة ابن سلول زعيم المنافقين، بل إنَّها لمَّا سمعت بما رُميت ابنتُها بالإفك خرَّت مغشياً عليها لهولِ ما سمعت؛ ولكن العنايةَ الإلٓهية كانت بالمرصاد لهؤلاء المرجفين، فنالوا الخزي، وجلَّلهم العار إلى يوم القيامة.

* وفي هذه المحنة الكبرىٰ، برزتْ أمُّ رومان - رضي الله

عنها ـ لتؤدي دور الأم الواعية الحانية، والحماة الكريمة الأديبة التي تعرفُ الحقوق وتدركُ معنىٰ الواجبات، والزَّوجة التي تشاطر زوجها نوائبَ الدَّهر، وكادت تقوم فتنةٌ ـ من جراء حديث الإفك ـ لولا أَنْ مَنَّ اللهُ على المؤمنين بفضله ورحمته، فاندثرت الفتنةُ.

* استطاعت أمُّ رومان ـ رضي الله عنها ـ أَنْ تتصرفَ بحكمة إزاء هذه المحنة التي أقضَّتْ مضجعَ الأسرة البكرية كلّها، وكتمتْ عن ابنتها عائشةَ خبر الإفك، ولكِنْ شاء الله سبحانه أَنْ يخبر عائشة ـ أمّ مسطح بن أثاثة ـ بتفاصيل ما يُشَاع عنها في حديث الإفك الآثم، ولنتركِ الحديثَ للصِّديقة عائشة صاحبة القصة لتحدثنا عن حالها وحالِ والدتها أمّ رومان، والحديث رواه أصحاب السُّنن وأهل التَّفسير والسِّير، وسنقتطف فِقْرات كاشفة من الحديث الذي يوضح دور أمّ رومان ـ رضي الله عنها ـ.

* تقول أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ بعد سماعها تفاصيل الخبر الآثم العَفِن:

«.. .. .. .. فجئتُ أبوي فقلتُ لأمّي: يا أمتاه ما يتحدَّثُ النَّاس؟

قالت: يا بنية هوِّني عليك، فوالله لقلَّما كانتِ امرأةٌ قط وضيئة عند رجلٍ يحبُّها، ولها ضرائر إلا كثَّرن عليها.

فقلتُ: سبحان الله ولقد تحدَّث النَّاس بهذا؟!.

قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنوم حتى أصبحتُ أبكي. . . . . .»[1].

* ومكثتْ أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ قرابةَ شهر في قلقٍ وخوفٍ، وحديث الإفك قد استفحل في المدينة، ولأمرٍ يريده الله سبحانه، ولدرس عظيم ألقاه الله علينا، لبثَ رسول الله ﷺ شهراً لا يُوحىٰ إليه شيء في شأن هذا الحادث، ولنتابع فقراتٍ مِنَ الحديث مع أمِّ المؤمنين عائشة فتقول:

«. . . . فبينا نحنُ على ذلك دخلَ علينا رسولُ الله ﷺ فسلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبثَ شهراً لا يُوحىٰ إليه في شأني، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أمّا بعدُ يا عائشة فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري اللهَ وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه». فلما قضىٰ رسول الله ﷺ قلصَ دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أجب عني رسولَ الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ، فقلتُ لأميّ: أجيبي رسولَ

---

(١) من حديث أم المؤمنين عائشة وقد رواه البخاري في صحيحه (١٢٧/٦) في تفسير سورة النور، وانظر تفسير ابن كثير والقرطبي لسورة النور الآيات (١١ ـ ٢٠).

الله ﷺ قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ[1]. . . . .».

* وتصوَّر عزيزي القارىء هذاالموقف المؤثر، تصوَّر شعور الصَّحابية الجليلة أمّ رومان أمام رسولِ الله ﷺ في لحظاتٍ حرجة عانت فيها وطء هذه المصيبة غير المتوقعة، ولكن كان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

* * *

البَراءةُ العُظمىٰ والفَرحَة الكُبْرىٰ:

* كان رسول الله ﷺ ما يزال عند عائشة، وما إنْ أتمَّ كلامه حتى ساد صمتٌ قليل، ونزلَ الوحيُ حاملاً شهادة البراءةِ الرَّبانيةِ للصَّديقة عائشة، وفي اللحظةِ ذاتها عاد السُّرور والإشراق إلى نَفْس أمّ رومان عندما سمعت رسول الله ﷺ يتكلَّمُ بأول كلمة بعد الوحي: «يا عائشة أمّا الله عزَّ وجلَّ فقد برَّأكِ».

* وسُرَّ الجميع بهذه الشَّهادة الرَّبانية المباركة النَّاصعة، وفي تلك السَّاعة الحافلة بالبشر والسُّرور لم تنسَ أمُّ رومانَ ـ رضي الله عنها ـ أصول الأدب أمامَ رسول الله ﷺ فأمرت ابنتها عائشة أنْ تقوم للنَّبي الكريم فقالت: «قومي إليه».

فقالت عائشةُ: «والله لا أقوم إليه ولا أَحْمَدُ إلا الله عزَّ

(١) المصدر السابق نفسه.

وجلَّ. وأنزل الله: ﴿إنَّ الذينِ جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه. . . . . ﴾ الآيات العشر كلّها[1].

* وهكذا خرجتْ أمُّ المؤمنين عائشةَ - رضوان الله عليها - مِنْ هذه المحنة بشهادة وضّاءة موقّعة من ربِّ العالمين تشير إلى طهرها وبراءتها ونقاء عنصرها.

* * *

كرامَةٌ للأسْرةِ البكْريّةِ الطّاهِرَةِ:

* عادت حياة النّقاء إلىٰ قلب أمّ رومانَ - رضي الله عنها - بعد أن انقشعت سحابة الإفك، وقد أكرم الله عزَّ وجلَّ بيتَ وأسرةَ أبي بكر الصّديق - رضوان الله عليه - وأنزل في شأن أمّنا عائشة قرآناً يُتْلىٰ إلىٰ يوم الدِّين، فأكرمْ بهذه المنقبة، لهذه الأسرة البكرية الطّاهرة! وكان هذا جـزاءً وفاقـاً منَ الكريم المُتعال عزَّ وجل لرجل دخل في الإسلام مِنْ أولِ يوم، وبذل نفسه وأهلَه ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله، وقد نوَّه أبو بكر الصّديق على طهارة أسرته ونقائها بقولته المشهورة: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أنْ

---

(1) الآيات العشر من (١١) حتى الآية (٢٠) من سورة النور، انظر صحيح الإمام مسلم في التوبة، باب حديث الإفك حديث رقم (٢٧٧٠) وانظر البداية والنهاية (٤/١٦٠).

أعزنا اللهُ بالإسلام. ويكفي أبا بكر شرفاً ومكرمة أنَّ الله جعله من أولي الفضل.

* * *

الخيِّرةُ الدَّيِّنَةُ:

* في حياة أمِّ رومان ـ رضي الله عنها ـ وقفاتٌ لطيفة، ونفحاتٌ مباركة جعلتها منَ النِّساء القانتات العابدات اللائي يُقتَدىٰ بهنَّ، فقد كانت تسعىٰ لمرضاة الله سبحانه وتعالى ولمرضاة رسوله الكريم ﷺ، ولم تخرجْ عن طاعة الزَّوج أيضاً.

* أما عبادتُها فكانت رائعةً، وصلاتُها سليمة صحيحة بتوجيه من زوجها أبي بكر الصديق، فقد روت كيف علَّمَها الصِّديقُ أداءَ الصَّلاة سليمة فقالت: رآني أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ أميلُ في الصَّلاة، فزجرني زجرةً كدتُ أنصرف مِنْ صلاتي، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم في الصَّلاة فليسكنْ أطرافه ولا يميل ميل اليهود، فإنَّ تسكينَ الأطراف مِنْ تمام الصَّلاة»[1].

* وفي مجال الدُّعاء والاستغفار ضربت أمُّ رومان مع زوجها الصِّديق مثالاً عملياً رائعاً، فقد ذَكَرَ عليُّ بن بلبان

---

(١) عن حياة الصحابة (١٣٧/٣).

المقدسي في كتابه النَّفيس «تحفة الصِّدِيق في فضائل أبي بكر الصِّدِّيق» فقال: جاء أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ وأمُّ رُومان حتى دخلا على رسول الله ﷺ فقال: «ما جاء بكما»؟.

قالا: يا رسول الله تستغفرُ لعائشةَ ونحنُ شهود.

فقال: «اللهم اغفر لعائشة بنت أبي بكر مغفرةً ظاهرة وباطنةً لا يغادرها ذنب».

فلما رأىٰ سرورهما بذلك قال رسول الله ﷺ: «ما زالت هذه دعوتي لِمَنْ أسلم مِنْ أمَّتي مِنْ لدن بعثني الله إلى يومي هذا»[1].

* وكان النَّبي الكريم ﷺ يكرمُ أمَّ رومانَ التي كانت تسعىٰ دائماً للفوز بمرضاة الله ومرضاة رسوله، وكانت تركنُ إلى الصَّمت إذا ما تكلَّم عليه الصَّلاة والسَّلام مع ابنتها عائشة، فقد ذَكَر صاحب السِّيرة الحلبية أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يذكرُ خديجة أمَ المؤمنين ويكرم صاحباتها، فقالت له عائشة يوماً: لكأنَّما ليس في الأرض امـرأة إلا خديجـة! فغضبَ عليه الصَّلاة والسَّلام، فإذا بأمِّ رُومان تقولُ له: ما لك ولعائشة، إنَّها حديثة السِّن وأنت أحقّ مَنْ يتجاوز عنها، فأخذ عليه الصَّلاة والسَّلام بشِدْقِ عائشة ـ رضي الله عنها ـ

(١) انظر تحفة الصديق (ص ٩٧)، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (١٥٨/٢) بمعنى قريب من هذا.

وقال: «ألستِ القائلة كأنّما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة؟ والله لقد آمنت بي إذ كفر بي قومك، ورزقتُ منها الولد وحرمتموه»[1].

* وهكذا فقد سكتت أمّ رومانَ أمام رسول الله ﷺ، فالرّسول الكريم لا ينطقُ عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحىٰ.

ودَاعاً أمّ الصّديقَة:

* ذكر ابن سعد في طبقاته وفاة الصّحابية الجليلة أمّ رُومان وأثنى عليها فقال: وكانت أمُّ رومانَ امرأةً صالحةً، وتوفيت في عهد النّبي ﷺ في ذي الحجة سنة ست من الهجرة[2].

* كان لوفاة أمّ رومان ـ رضوان الله عليها ـ كبير الأثر في نَفْس رسول الله ﷺ، وكذلك في نفس ابنتها وزوجها رضوان الله عليهم جميعاً، ولكنَّ اللهَ سبحانه وتعالىٰ أكرمها بكرامةٍ عظيمة جعلتها مِنَ السُّعداء إن شاء الله، فقد نزل رسول الله في قبرها واستغفر لها.

ومن عيون أخبار أم رومان ما حاصله أنَّ النبي الكريـم ﷺ لم ينزلْ في قَبْر أحد قط إلا خمسة قبور، ثلاث نسوة ورجلين، منها قَبْرُ خديجةَ أمّ المؤمنين في مكة المكرمة،

---

(١) عن السيرة الحلبية (٣/٤٠١) بتصرف يسير، وانظر المغازي والسير لابن إسحاق (ص ٢٤٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/٢٧٦).

وأربع بالمدينة، منها قبر أمّ رومان ـ رضوان الله عليها ـ في البقيع[1]، ونزل رسول الله في قبرها وقال: «اللهم إنَّه لم يخفَ عليك ما لقيتْ أمّ رومان فيك وفي رسولك ﷺ»[2].

وقد كان آخر شيء في حياة أمّ رومان دعاء رسول الله ﷺ، فنعمَ الخاتمة ونعمَ الدُّعاء.

* * *

بشارتها بالجنة:

* قال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ وأخبتوا إلىٰ ربِّهم أولئك أصحابُ الجنَّة هم فيها خالدون﴾ [هود: آية ٢٣].

* الصَّحابية الفاضلة أمّ رومان واحدة مِنْ نساء الإسلام اللواتي تركن آثاراً عبقةً في تاريخ حياتهن الوضّاءة، فكانت مِنَ السَّابقات الكريمات إلى الإسلام وكانت مِنَ المهاجِرات الأُوَل ومن القانتات العابدات، ومن اللائي قدَّمنَ التَّضحيات لنصرة رسول الله ﷺ.

---

(١) البقيع ـ بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة، انظر معجم البلدان (٤٧٣/١).

(٢) انظر الاستيعاب (٤٣١/٤)، والإصابة (٤٣٣/٤)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٤٢) والسيرة الحلبية (٢٧٤/٢)، ووفاء الوفا (٨٩٧/٣).

وقد حظيت أمُّ رُومان بالبشارة العظمى ـ الجنَّة ـ، روىٰ ابن سعد بسنده عن القاسم بن محمّد قال: لما دُلِّيَت أمُّ رومانَ في قبرها، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ ينظرَ إلىٰ امرأةٍ منَ الحور العِين فلينظر إلىٰ أمّ رُومان»[1]. ولا يخفىٰ ما في هذا الحديث مِنْ إشارة إلى البشارة بالجنّة، وأَنَّ الحور العين إنّما يكنَّ في الجنَّة.

* ومن الأخبار التي تُضاف إلى رصيد أمّ رومان، أنَّها روتْ عن النَّبي الكريم حديثاً واحداً انفردَ بإخراجه الإمام البُخاريّ[2] ـ رحمه الله ـ.

* رضيَ الله عن الصَّحابية الدَّيِّنة الخيِّرة أمّ رومان، أمّ الصّديقة وزوج الصّديق، ونضَّر الله قبرها، ومع وداع سيرتها المعطار نقرأ قوله تعالى: ﴿إنَّ المتقينَ في جنَّاتٍ ونهر * في مقعد صِدْقٍ عِند مَلِيْك مُقتدر﴾ [القمر: ٥٤ و ٥٥].

* * *

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٢٧٧) وكنز العمال (١٢/١٤٦)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٢٤٢)، والسيرة الحلبية (٢/٢٧٤) وأنساب الأشراف (١/٤٢٠).

(٢) انظر المجتبى لابن الجوزي (ص ١٠٣).

أمّ أيمـــن
بركَةُ بنتُ ثَعْلبَةَ
رضي الله عنها

«مَنْ سرّه أنْ يتزوّج امرأةً مِنْ أهلِ الجنّة فليتزوّج أمّ أيمن»

حديث شريف

«أمّ أيمن أمّي بعد أمّي»

حديث شريف

أم أيمــن
بركَةُ بنتُ ثَعْلبَة
رضي الله عنها

يـا أمّـه:

* أمُّ أيمن، بركةٌ، يُمْنٌ وبركةٌ جُمِعا في شخصية هذه الصَّحابيةِ الكريمة، التي حظيت بالتّكريم مِنْ رسول الله ﷺ.

* هذه الصَّحابيةُ المباركة، عاشت مراحلَ النُّبوة كلها، وعاصرتِ الأحداثَ الإسلامية مِنْ أَلِفِها إلىٰ يائِها.

* عاشت مولاة، وعاشت حرّةً، وكانت زوجاً وأمّاً.

* كانت حاضنةً للنّبي الكريم ﷺ، واضحت زوجاً لحبِّ رسول الله ﷺ ـ زيد بن حارثة ـ، وأُمّاً للشهيد «أيمن بن عُبيد الخزرجي»، وأُمّاً لأميرِ الأمراء وفارساً مِنْ فرسان الرّسول ـ الحبُّ بنُ الحبِّ[1] ـ أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ.

* والآن فمَنْ أمُّ أيمنَ هذه؟ وما هي هويتها؟

---

(١) أي المحبوب بن المحبوب.

* هي بركةُ بنتُ ثعلبـة بن عمرو بن حصن. . . . . الحبشية، وهي أمُّ أيمن، غلبت عليها كُنيتها حيث كنيت باسم ابنها أيمنَ من زوجها عُبيد بن زيد الحبشي[1]، ويقال لها: مولاةُ رسول الله ﷺ، وخادم رسول الله ﷺ.

* وهـذه السَّيدةُ الفـاضلة عرفتِ النَّبي الكـريم طفـلاً صغيراً، وعرفته شاباً ونبيّاً مرسلاً، وزوجاً وأباً وجداً، وكان النَّبي الكريمُ ﷺ يقول لها: «يا أُمّه» وقد عاشت بعد وفاته مدّةً مِنَ الزّمن، فهي تُعتبر إحدىٰ مراجع السِّيـرة النَّبويـة المباركة.

* والآن لندخلَ رحابَ سيرة هذه الصَّحابية الجليلة، إحدىٰ النِّساء المسلمات اللاتي كان لهن نصيبٌ في تاريخ الإسلام.

* * *

الحَاضِنَةُ الطَّيِّبَةُ:

* ذكر شيخ كُتّاب السِّيرة النَّبـوية محمّـدُ بن إسحاق ـ رحمه الله ـ، أنَّ عبدَالله بن عبد المطلب قد توفي والنَّبيُّ لا يزال جنيناً في بطن أُمِّه آمنةَ بنت وهب، وقد ترك عبدالله للجنين خمسة من الإبل، وقطيعاً من الغنم، وسيفاً مأثوراً، ووَرِقاً ـ فضة ـ وجاريةً هي أمُّ أيمنَ بركة الحبشية ضيفتُنا

---

(١) انظر الاستيعاب (٤/٤٣)، وانظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٧٦٢).

المباركة اليوم، فكانت أمُّ أيمن تحضنه ويسميها أمي[1].

* واستُرضع النَّبي الكريم في بني سعد، وها هو قد عادتْ به حليمة السَّعدية في سنته الخامسة، وأسلمته إلىٰ أمِّه آمنةَ، ولما بلغ السَّادسةَ، ذهبتْ به أمُّه إلىٰ المدينة لزيارة بني النَّجار أخوال جده عبد المطلب، واصطحبت معها أمّ أيمن في هذه الزِّيارة، ولما عادت إلىٰ مكة مرضت آمنة في الطَّريق، وتوفيت في الأبواء[2] ـ قرية بين مكة والمدينة ـ وجلس محمّدٌ ﷺ يبكي علىٰ فراق أمِّه؛ الذي أثّر أثراً كبيراً في نفسه، وظلتِ الذّكرىٰ إلى ما بعد الهجرة، فقد نظر ﷺ إلى دار بني النّجار عندما هاجر وقال: «هنا نزلتْ بي أمّي، وفي هذه الدّار قبر أبي عبدالله، وأحسنتُ العَوْمَ في بئر عَدي بن النّجار»[3].

* وفي هذا الموقف الأليم، برزت أمُّ أيمَن لتحتلَّ مكانتها بين النِّساء اللاتي تركن بصماتٍ واضحةً في التّاريخ، وقد أراد الله سبحانه وتعالىٰ لها الخير كلّه، وعادت بالنّبي ﷺ، وأضحت حاضنته وأوقفت نفسها لرعايته والعناية به، [illegible]مرته بعطفها، كما غمره جده عبد المطلب بحبّه أيضاً، وقد عوّضه

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/١٠٠)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٧)، وأنساب الأشراف (١/٩٦).
(٢) انظر شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقاني (١/١٦٧ و١٦٨)، وانظر طبقات ابن سعد (١/١١٦).
(٣) انظر طبقات ابن سعد (١/١١٨)، وعيون الأثر (١/٤٩)، والسيرة الحلبية (١/١٨٠).

الله بحنانِ جده وأمِّ أيمن عن حنان الوالدين، وأُغرِمَ به عبد المطلب غراماً شديداً، وكثيراً ما كان يوصي الحاضنة أمّ أيمن قائلاً: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإنّي وجدته مع غلمان قريباً من السّدرة، وإنَّ أهلَ الكتاب يزعمون أنَّ ابني هذا نبيُّ هـذه الأمّـة.

* وكان عبدُ المطلب يُسَرُّ لِما يرىٰ مِنْ مخايل الشّرف والكرامة علي حفيده محمّد، ويوصي أعمامه بقوله: دعوا ابني فوالله إنَّ له لشأناً.

* ولكن المنية وافت عبد المطلب بعد أنْ أوصىٰ ابنه أبا طالب بكفالة النّبي وحياطته، وحزن النّبي عليه الصّلاة والسّلام حزناً شديداً، وكان ما يزال طفلاً صغيراً.

* وقد سُئل ﷺ: أتذكرُ موت عبد المطلب؟ قال: «نعم أنا يومئذ ابن ثمان سنين».

* وتروي أمُّ أيمنَ حُزْنَ الرّسول الكريم على جدِّهِ فتقول: رأيتُ رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلفَ سرير عبد المطلب[1].

* * *

إنَّكَ لمُبَاركٌ:

* ازدادت عنايةُ أمِّ أيمنَ بالنّبي ﷺ، كما حاطَه أبو طالب

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/١١٩).

وزوجه فاطمة بنت أسد[1] بعناية خاصّة، وتولاه اللهُ برحمته، وخصَّه بالبركة، فكان يصبح دهيناً كحيلاً، بينما كان الصِّبيان يصبحون خلافَ ذلك، روىٰ ابنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان بنو أبي طالب يصبحون رُمْصاً شُعْثاً، ويصبح محمَّدٌ ﷺ دهيناً كحيلاً، وكانَ أبو طالب يحبُّهُ حبّاً شديداً[2].

* وحدّثت أمُّ أيمنَ عن هذه البركة فقالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ شكا جوعاً قطّ ولا عطشاً، فكان يغدو إذا أصبح فيشربُ مِنْ ماءِ زمزمَ شربة، فربما عرضنا عليه الغداء فيقول: لا أريدُ أنا شبعان[3].

* وكان أبو طالب كثيراً ما يقول للنَّبي الكريم: إنَّك لمباركٌ، لما يَرىٰ مِنَ البركة، والآثار الطيِّبة التي تكتنف عيال أبي طالب.

* * *

عتقُها وزوَاجُهَا:

* شبَّ رسولُ الله ﷺ وهو ينادي أمّ أيمنَ «يا أمّه»، فقد

---

(١) اقرأ سيرة فاطمة بنت أسد في هذا الكتاب.

(٢) انظر هذا في البداية والنهاية (٢/٢٨٢)، وشرح المواهب للزرقاني (١/١٨٩).

(٣) انظر دلائل النبوة للأصبهاني (١/٢١٠ و ٢١١).

كانت ـ رضي الله عنها ـ تقومُ على أموره وشؤونه، وترعاه رعايةً حسنة، ولما تزوّج النّبي الكريم من خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ، أعتقَ أمّ أيمن، فتزوجها عُبيد بن زيد الخزرجي[1]، فولدت له أيمن ـ ولأيمن هذا هجرة وجهاد واستُشهد يوم حنين ـ رضي الله عنه ـ وهو الذي تُكنى به ـ رضي الله عنهما ـ.

* لم ينقطعْ برُّ النّبي الكريم عن أمِّ أيمنَ، بل ظـلَّ يكرمها ويزورها، وكان رسولُ الله ﷺ إذا نظرَ إليها قال لها: «هذه بقيةُ أهل بيتي» كما كان يقول لها: «يا أُمّه»[2].

* وفي كتابه «تهذيب الأسماء واللّغـات» ذكر النّـووي ـ رحمه الله ـ أنَّ الرّسول ﷺ، كان يقول: «أمُّ أيمنَ أُمّي بعد أُمّي».

* ولما بُعِثَ رسول الله ﷺ، كانت أمُّ أيمنَ مِنَ السّابقات إلىٰ الإسلام، ومن المصدِّقاتِ برسالة محمّد ﷺ، ذكر ابنُ الأثير الجزري في كتابه النّفيس «أُسْدُ الغابة» هذا فقال: أسلمتْ قديماً أول الإسـلام[3]. ومن أوّل يومٍ من أيـام

(١) انظر أنساب الأشراف (١/٤٧١)، والسيرة الحلبية (١/٨٥)، والمجتبى لابن الجوزي (ص ١١٠).
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/٢٢٣)، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٢٤) والإصابة (٤/٤١٥).
(٣) أسد الغابة ترجمة رقم (٧٣٦٣).

إسلامها انخرطت في موكبِ المسلمات، فتركها زوجُها عبيد بن زيد وأبىٰ أنْ يسلمَ، ففرّقَ الإسلامُ بينهما.

* وكانت خديجةُ بنت خويلد أمُّ المؤمنين، قد ملكتْ زيدَ بن حارثة، اشتراه لها حكيمُ بنُ حزام بن خويلد[1] منْ سوق عكاظ، وسأل النّبي ﷺ زوجَه خديجةَ أنْ تهب له زيداً، فوهبته له، فأصبحَ زيدُ أثيراً لدىٰ رسول الله فأعتَقه، ثم زوَّجه أمَّ أيمنَ حاضنتَه وجعل له الجنَّة، فولدت له أُسامة فكان يكنى به[2] رضي الله عنهم جميعاً، وكان لهذه الأسرة المباركةِ شأنٌ كبيرٌ في عَصْر النُّبوة وصَدْر الإسلام.

* * *

(١) هو أبو خالد حكيم بن حزام بن خويلد القرشي الأسدي المكي، وُلِدَ قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة في جوف الكعبة، أسلم يوم فتح مكة سنة (٨ هـ)، شهد بدراً مع المشركين، كان إذا اجتهد في يمينه قال: والذي نجاني أنْ أكونَ قتيلاً يوم بدر. عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، وكان جواداً كريماً. توفي حكيم بالمدينة سنة أربع وخمسين من الهجرة. وحكيم هذا ابن أخي خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وابن عم الزّبير ابن العوام بن خويلد، وله مناقب كثيرة، وروىٰ عن رسول الله ﷺ أربعين حديثاً. أخرج له منها في الصّحيحين أربعة متفق عليها (عن تهذيب الأسماء واللغات والمجتبى بتصرف يسير).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٣/٤٥).

الهِجْرةُ المباركَةُ:

* ذكر ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ أيمنَ أسلمتْ قديماً وهاجرت إلى الحبشة، ثمَّ إلى المدينة، ولهجرتها إلى المدينة قصَّةٌ شائقة لطيفة تدلُّ على إكرامِ الله سبحانه وتعالى لها.

* لنستمعْ إلى هذه الكرامة المباركة التي حباها الله لهذه المؤمنة التَّقية النَّقية، فقد ذكر ابن سعد وغيره هذه المكرمة فقالوا: لما هاجرت أمُّ أيمنَ أمْسَت بالمنصرفِ دون الرَّوحاء فعطشت، وليس معها ماء، وهي صائمةٌ فجهدها العطش فدُلِّيَ عليها مِنَ السَّماء دَلْو مِنْ ماء برشاء أبيضَ، فاخذته فشربتْ منه حتى رُويتْ فكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطشٌ، ولقد تعرضتُ للعطش بالصَّوم في الهواجر فما عطشتُ بعد تلك الشُّربة، وإني كنتُ لأصومُ في اليوم الحار فما أعطش[1].

* إنَّه تكريمٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ لخروجها في سبيله تبتغي مرضاته ورضوانه، لذلك ذكرها أبو نُعَيم عندما ترجمَ لها بقوله: ومنهن أمُّ أيمنَ المهاجرةُ الماشية، الصَّائمةُ الطاوية،

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/٢٢٤)، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٢٤)، والإصابة (٤/٤١٥)، والسيرة الحلبية (١/٨٥).

النَّاحبةُ الباكية، سُقِيت من غير راوية، شربةً سماوية، كانت لها شافية كافية[1].

* * *

صُورٌ مِنْ جِهَادِهَا:

* جمعتْ أمُّ أيمنَ ـ رضوان الله عليها ـ الصِّفات الطَّيِّبة التي ينبغي أنْ تتوفرَ في المرأة، ولكنّها بالإضافة إلىٰ خلالها الحميدة أضافت صفةً أخرى رائعة إلىٰ صفحاتِ حياتها المعطاء، ألا وهي صفة الجهاد، فقد أبتْ رضي الله عنها ـ على الرّغم مِنْ كبر سنِّها ـ إلا أنْ تشاركَ رسول الله وأبطال الإسلام في مقارعة المشركين؛ لتكون كلمة الله هي العليا وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى، وكان لأمِّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ مواقف مشهورة في الغزوات التي حضرتها، سجلها لها التَّاريخ بأحرفٍ من نور.

* والآن دعونا نسعد في هذه السُّطور مع جهاد أمِّ أيمنَ ونشهد جانباً مِنْ شجاعتها وأعمالها الوضَّاءة.

* * *

(١) الحلية (٢/٦٧).

دورُهَا في غَزوةِ أُحُدٍ:

* في غزوة أحد خرجت أمُّ أيمنَ ـ رضوان الله عليها ـ مع النِّساء اللاتي خرجنَ، وكانت مهمةُ أمِّ أيمنَ مداواة الجرحى والاعتناء بهم، وسقاية العطاش من المجاهدين، وذكر سيِّدنا كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مهمة أمّ أيمن، فقال: «وكانت أمُّ أيمنَ تسقي الجرحىٰ».

* وبينما كانت تقومُ بسقاية الجرحى، أصابها سَهْم مِنْ يَدِ أحد المشركين وهو حِبّان بن العَرِقَة فوقعت أرضاً، فضحكَ حبّانُ ضحكاً شديداً، فشَقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، ودفع إلى سيِّدنا سعدِ بن أبي وقّاص سَهماً لا نَصْل له فقال له: «ارم»، فأصاب السَّهم حبّان فوقع مستلقياً وبدتْ عورته، فضحكَ رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «استقادَ لها سعدً، أجابَ الله دعوتَك، وسدّدَ رميتَك»[1].

* وتابعتِ المجاهدةُ الجريئة أمُّ أيمن مهمتها، وكان لها موقفٌ يشيرُ إلىٰ شجاعتها وحكمتها، فعندما خالفَ الرُّماة في أحدٍ أمْرَ النَّبي الكريم ﷺ وانهزم بعضُ المسلمين، لقيتهم أمُّ أيمن تحثي في وجوههم التُّراب وتقول لبعضهم: هاكَ المغزل فاغزل به، وهلمَّ سيفك[2]. ثم اتجهتْ نحو رسول

---

(١) عن المغازي (١/٢٤١) وأنساب الأشراف (١/٣٢٠) بتصرف يسير جداً.

(٢) انظر المغازي (١/٢٧٨) وانظر أنساب الأشراف (١/٣٢٦) ودلائل =

الله ﷺ تستطلعُ أخباره في نسوةٍ معها حتى اطمأنت على سلامته فحمدتِ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

مَوقفُهَا في خَيبَرَ:

* في غزوة خيبرَ كان لأمِّ أيمنَ موقفٌ لا يقلُّ روعةً عن موقفها في أحد، فقد خرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة، ومن بينهن أمُّ أيمنَ، وأمُّ عمارة نَسيبة بنت كعب، وأمُّ العلاء الأنصارية وغيرهن[1]، وتخلَّفَ أيمنُ ابن أمُّ أيمن عن هذه الغزوة لظرفٍ منَعه مِنَ الخروج، فعيَّرتْه بالجُبْن والخوف، علماً بأنَّ أيمنَ كان مِنْ فرسان النَّبي ﷺ، وقد أخَّرهُ عن الخروجِ مرضُ حصانه، وقد أشار لذلك سيِّدُنا حسانُ بن ثابت، فقال يعذرُ أيمن ـ رضي الله عنه ـ ويذكر شجاعته ويسجِّل فَضْلَ أمِّه وموقفها:

علىٰ حين أنْ قالت لأيمنَ أمُّه
جَبُنْتَ ولم تشهدْ فوارسَ خيبرِ
وأيمنُ لم يجبُن ولكنَّ مهرَه
أضرَّ بهِ شربُ المديدِ المخمَّرِ[2]

- النبوة للبيهقي (٣/٣١١).

(١) انظر المغازي (٢/٦٨٥).

(٢) المديد: الدقيق يخلط مع الماء فتشربه الخيل، والمخمر: الذي ـ

فلولا الذي قد كان من شأنِ مهره
لقاتل فيها فارساً غير أعْسرِ[1]
ولكنه قد صدّه فِعْلُ مُهرِه
وما كان منه عنده غير أيسرِ[2]

وقد أكرمَ رسول الله ﷺ أمّ أيمنَ والنّساء اللائي خرجن معها، فقد ذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ عن شهود النّساء خيبر فقال: وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساءٌ مِنَ المسلمين فرضخ لهن ـ أعطاهن عطاءً يسيراً ـ رسول الله ﷺ مِنَ الفيء، ولم يضرب لهنّ بِسَهْمٍ.

* * *

الصّابِرَةُ في مُؤتَةَ وحُنَينٍ:

* في سَرِيّةِ مؤتةَ، خرج سيّدُنا زيدُ بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ أميراً على الجيش كلّه، وفي مؤتةَ لقيَ ربّه شهيداً مع سيّدنا جعفر بن أبي طالب وسيّدنا عبدالله بن رواحة، ويحدّث النّبي الكريمُ أصحابه بخبر استشهاد الأمراء الثّلاثة، وأوّلهم زيد، وتتلقّىٰ أمُّ أيمنَ نبأ استشهاد زوجها فتحتسبه عند الله

= ترك حتى يختمر.

(١) الأعسر: الذي يعمل بيده الشمال ولا يعمل باليمين.

(٢) انظر البيتين الأولين في الاشتقاق (ص ٤٦٠)، وانظر ديوان حسان ابن ثابت (ص ٢٦٦ و٢٦٧).

وتصْبِر، وتُعلِّم ابنَها أسامة الصَّبر، وتغرسُ فيه روح الشَّجاعة والثَّبات، ليثأرَ لأبيه من المشركين، وفي هذا الموقف المؤثر ضربتْ أمُّ أيمن أجمل الأمثلة وأحلاها في الصَّبر والتَّسليم لقضاءِ الله.

* وتأتي غزوةُ حنين، وتخرج أمُّ أيمنَ - رضي الله عنها - مع النِّساء اللائي خرجنَ، وفي هذه الغزوة المباركة شاركت أمُّ أيمن بالكثير، دفعتْ بولديها أيمنَ وأسامةَ ليكونا حول الرَّسول ﷺ، وشاركت هي في سقاية الجرحى، كما شاركت بلسانها في الدُّعاء للمسلمين وطَلَبِ النَّصر مِنَ الله لهم.

* ومن الجدير بالذِّكر أنَّ ابنها أيمن كان مع النَّفر مِنَ المهاجرين والأنصار الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، ومنهم: سَيِّدُنا العبَّاس بن عبد المطلب، وعليٌّ بن أبي طالب، وأبو سفيانَ بن الحارث بن عبد المطلب، وأيمنُ بن عبيد الخزرجي، وأسامةُ بن زيد، وأبو بكر وعمرُ، وحارثةُ بن النُّعمان، وغيرُهم، وقد ضرب سيِّدُنا أيمن بن عبيد أروعَ الأمثلة في الشَّجاعةِ وفي الدِّفاع عن رسول الله ﷺ وسقط شهيداً، ولحق بربه إلى جنَّاتٍ عرضُها السَّماوات والأرض أعدت للمتقين.

* وصبرت أمُّ أيمن أيضاً، واحتسبت ابنها عندَ الله سبحانه ابتغاءَ مرضاته ومرضاةِ رسوله ﷺ.

* * *

مكانتُهَا عنَد النَّبي ﷺ:

* كانت أمُّ أيمنَ - رضوان الله عليها - تخدم النَّبيَّ ﷺ وتهتمُّ به، وكانت ذات مكانة كبيرة عند النَّبي الكريم، والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام مِنْ أعْرفِ الخلق بالنَّاسِ، وقد نظر فرأىٰ صفاء نفسية أمِّ أيمنَ ونقاء قلبها، فأحلَّها مكانةً كبرىٰ، فكأنَّما أمُّ أيمَن مِنْ أهلِ بيت النُّبوة عندما قال لها عليه الصَّلاة والسَّلام ذات مرة: «غطِّي قناعَك يا أمّ أيمن»[1].

* ويروي عليٌّ بن برهان الدِّين الحلبي في سيرته اللطيفة حديثاً يشيرُ إلى مكانة أمِّ أيمن في نَفْس الرَّسول ﷺ، فعن عائشةَ بنت الصِّديق - رضي الله عنهما - قالت: شَرِبَ رسول الله ﷺ يوماً، وأمُّ أيمن عنده، فقالتْ: يا رسول الله اسقني.

فقلتُ لها: أَلِرسولِ اللهِ ﷺ تقولينَ هذا؟.

فقالتْ: ما خدمتُه أكثر.

فقال النَّبي ﷺ: «صدقتْ» فَسَقاها[2].

* وهذا سيِّدُنا أنسُ بنُ مالك - رضي الله عنه - يتحدث عن مكانة أمِّ أيمن فيقول: ذهبتُ مع النَّبي ﷺ إلىٰ أمِّ أيمنَ نزورُها، فقربتْ له طعاماً أو شراباً، فإمَّا كان صائماً وإمَّا لَمْ

---

(1) انظر طبقات ابن سعد (٨/٢٢٤).

(2) انظر السيرة الحلبية (١/٨٥).

يُردُّه، فجعلتْ تُخاصمه أي كُلْ[1] ـ وفي رواية أخرىٰ ـ فأقبلتْ تُضاحكه[2]. وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ يبتسمُ لتصرفات أمِّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ.

* ومنَ الطَّريف أنَّ أمَّ أيمنَ كانت تفعلُ كلَّ ما تقدر عليه، في سبيل إكرام رسول الله، فقد رُوي أنَّها غربلتْ ـ نخلت ـ دقيقاً فصنعَتْه للنَّبي ﷺ رغيفاً، فقال: «ما هذا»؟ قالت: طعامٌ نصنعهُ بأرضنا ـ أي في الحبشة ـ فأحببتُ أنْ أصنعَ لك منه رغيفاً، فقال ﷺ: «رُدِّيهِ فيه ثمَّ اعجنيه»[3].

* ومما يُضافُ إلىٰ مكانة أمِّ أيمن أنَّها كانت موضعَ اهتمام الرَّسول الكريم ﷺ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنَّ لونَها كان أسود، وقد خرج أسامةُ يشبه لونها أيضاً، بينما كان أبوه زيدُ بن حارثة أبيضَ، ومن ثمَّ كان المنافقون والمرجفون يطعنون في نَسَبِ سيِّدنا أسامة بن زيد ويقولون: هذا ليس هو ابن زيد، وكان النَّبي الكريم ﷺ يتشوش من ذلك، إلىٰ أن انجلتِ الحقيقةُ، فقد روىٰ الشَّيخان عن عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «دخل عليَّ النَّبي ﷺ مسروراً فقال: ألم تَرَيْ أنَّ مُجزِّزاً المُدلجي قد دخل عليَّ فرأىٰ

---

(١) انظر الحلية (٢/٦٨)، وصفة الصفوة (٢/٥٥).

(٢) الإصابة (٤/٤١٦).

(٣) انظر حياة الصحابة (٢/٢٧٣ و ٢٧٤) والحلية (٢/٦٨).

اسامة وزيداً عليهما قطيفة قد غطيًا رؤوسهما، وقد بدتْ أقدامُهما فقال: إنَّ هذه الأقدامُ بعضٌ مِنْ بعض»[1].

* وهناك قصةٌ طريفة تدلُّ على المكانة التي كانت تتمتعُ بها الصَّحابية الجليلة أمّ أيمنَ في نَفْسِ رسول الله، وتشيرُ القصةُ إلى حبِّها لرسولِ الله واحترامها له ولما يكرمها به، ولنتركْ شاهدَ عيان يقصّ علينا تلك القصة الشّائقة.

* روى سيّدنا أنسُ بن مالك ـ رضوان الله عليه ـ أنَّ الرجل كان يعطي من ماله النّخلات أو ما شاء الله مِنْ ماله النَّبيَ ﷺ حتى فُتحتْ عليه قريظة والنُّضير، فجعلَ يردُّ بعد ذلك، فامرني أهلي أنْ آتيَه فأساله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان النَّبيُ ﷺ أعطاه أمَّ أيمنَ، أو كما شاء الله، قال: فسألتُه فأعطانيهن، فجاءتْ أمُّ أيمنَ فلَوتِ الثَّوْبَ في عنقي، وجعلت تقول: كلا واللهِ لا إلَه إلا هو، لا نعطيكهن وقد أعطانيهن. فقال نبيُّ الله ﷺ: «يا أمَّ أيمن اتركي كذا وكذا» وهي تقول: لا والله حتى أعطاها عشرة أمثال ذلك أو

---

(١) عن السيرة الحلبية (٢/٨٦) وانظر كتاب الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة (ص ٢٩١ و٢٩٢) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٨٣)، وكان مجزز يقفو الأثر فيعرف صاحبه بالمطابقة بينه وبين القدم، وهو علم يبنى على شدة الفراسة وقوة الملاحظة.

نحوه ـ وفي لفظ الصَّحيح: كلا والله حتى أُعطىٰ عشـرة أمثاله[1].

* وهكذا كانت أمُّ أيمن ـ تتدللُ ـ ولم ترضَ حتىٰ أخذتْ ما أحبت، وقد منحها الرَّسول الكريم ما أرادت، ونالت الرِّضا والتَّكْريم ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* * *

النَّبيُّ الكريمُ باسِمَاً:

* كان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يمزح مع أصحابه رضوان الله عليهم، وذلك لإدخال السُّرورِ عليهم، وكان له ﷺ بعض المواقف اللطيفة مع حاضنتِهِ أمِّ أيمنَ، فمن ذلك ما رُوي أنَّها جاءته فقالت: يا رسول الله احملني، قال: «أحملُك علىٰ وَلَدِ النَّاقة» قالت: إنَّه لا يطيقُني ولا أريد، قال: «لا أحملُكِ إلا عليه» يعني أنَّه كان يمازحها، وكان الرَّسول الحبيبُ يمزح ولا يقولُ إلا حقاً، والإبلُ كلُّها ولدُ النُّوقِ[2].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، ومسلم في كتاب الجهاد والسِّير، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (٢/٤٤٤ و٤٤٥)، وطبقات ابن سعد (٨/٢٢٥)، والإصابة (٤/٤١٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/٢٨٨ و٢٨٩).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/٢٢٤).

النَّبيُّ الكريمُ مُعلِّماً:

* كان النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يُعلِّمُ أمَّ أيمنَ بعض الأمور في الحلال والحرام، وكان أحياناً يُوجِّهُها توجيهاً لطيفاً، مِنْ ذلك ما روته أمُّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: قالَ لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الخمرةَ من المسجد» قلتُ: إني حائض، قال: «إنَّ حيضتَك ليست في يدك»[1].

* وذكر الرواة أنَّ أمَّ أيمن كانت تتعثَّرُ في الكلام أحياناً ـ عسراء اللسان ـ وكان النَّبي الكريم يُعلِّمها أو يأمرها أنْ تلزم السُّكوت؛ مِنْ ذلك ما رُوي أنَّها دخلت على النَّبي ﷺ فقالت: سلام لا عليكم، فرخَّصَ لها أنْ تقولَ: السَّلام[2]. وكانت تقصدُ أنْ تقولَ: سلامُ اللهِ عليكم. وهكذا علَّمها النَّبي الكريمُ دون أنْ يخرجَ السَّلام عن صيغته الصَّحيحة، ودون أنْ يخدشَ شخصيةَ الصَّحابية الفاضلة أمِّ أيمن ـ رضي الله عنها ـ.

* ومن الطَّريف أنَّ النَّبي الكريمَ، لا ينسى وهو في اللحظات الحرجة أنْ يتبسَّم وأنْ يُعلِّمَ حاضنتَه، كان هذا في غزوة حنين، إذْ كانتِ المعركةُ في أوائلها حرباً شديدةً امتُحِنَ بها المؤمنون، وزُلزلوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وتراجع كثيرٌ مِنَ النَّاس، وثبت بعضهم، في تلك اللحظات

(١) انظر الإصابة (٤/٤١٦).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٢٥).

كان رسول الله ﷺ، ينادي النَّاس المتراجعين الذين سيطر عليهم الهلعُ ويقول: «إليّ أيُّها النَّاس، هلموا إليّ، أنا رسولُ الله، أنا محمد بن عبدالله، أنا النَّبي لا كـذب، أنا ابنُ عبد المطلب».

* في هذا الموقف يسمع حاضنته أمَّ أيمنَ تدعو الله بلكْنَتِها الأعجمية وتقول: سبَّتَ الله أقدامكم. وانتبه النَّبي الكريم لما تقول، ولم تنسه أهوال الحرب أن يمازحها ويعلمها، وأقبل عليها يقول: «اسكتي يا أمّ أيمنَ فإنَّكَ عثراءُ اللسان»[1].

* * *

أمُّ أيمنَ والصَّدِّيقةُ عَائِشَة:

* عندما رجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق، قال أهلُ الإفكِ ما قالوا في الصَّديقةِ بنتِ الصَّديق أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ، فبرأها الله ممّا قالوا[2]، وهنا كانت أمُّ أيمنَ موضعَ ثقة النَّبي الكريم، فأثنتْ

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (٤٩/٣)، وطبقات ابن سعد (٢٢٥/٨) وفيه عسراء اللسان، بدل عثراء اللسان.

(٢) انظر حديث الإفك في صحيح البخاري لتفسير سورة النور، وانظر تفسير الماوردي وابن كثير والقرطبي للآيات (١٠ ـ ٢٠) من سورة النور.

على عائشةَ خيراً عندما سألها رسولُ الله: «أيّ امرأة تعلمين عائشة»؟ فقالت أمُّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ: حاشىٰ سمعي وبصري أنْ أكونَ علمتُ أو ظننتُ بها إلا خيراً[١].

* وهكذا عبَّرت الحاضنةُ الكريمة عن طيب عنصرها وتربيتها النَّبوية، فحظيتْ بالمكانةِ المباركة عند الرَّسول الكريمِ وعند زوجه أمِّ المؤمنين عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

أمُّ أيمنَ وبَنَاتُ النَّبيِّ:

* لم تكن أمُّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ بمعزلٍ عن الأحداث التي كان تمرُّ بالبيت النَّبوي، فقد كانت تشاركُ الرَّسولَ الكريم ﷺ، كما تشارك أهلَه في أعمالهم وفي أفراحهم، وها هي تكون مع فاطمةَ بنتِ رسول الله يوم زواجها من سيِّدنا عليٍّ بن أبي طالب وتقوم بشأنها مع الصَّحابية الجليلةِ أسماء بنت عميس[٢].

---

(١) انظر المغازي (٢/٤٣١)، وانظر حياة الصحابة (٢/٦٦٧) وما بعدها.

(٢) هي أسماء بنت عميس بن معد، أسلمت بمكة قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة فولدت له هناك عبدالله ومحمّد وعون، وقُتِلَ عنها جعفر يوم مؤتة، فتزوجها سيّدنا أبو بكر الصّديق =

* ولما تُوفيت زينب بنت رسول الله ﷺ، كانت أمُّ أيمَن ممَّنْ غسَّلها، وكذلك سَودة بنت زمعة وأمّ سلمة[1] زوج النّبي الكريم ﷺ.

* ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ أمَّ أيمنَ قد غسَّلت خديجة أمَّ المؤمنين بمكةَ لما توفيت، وذلك قبل الهجرة النَّبوية الشَّريفة[2].

* * *

فِرَاقُ الحَبِيْبِ:

* في صفر سنة (١١ هـ)، أخذ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يجهزُ جيشاً كبيراً، وجعل أميرَه سيّدنا أسامة بن زيد بن حارثة، وأمَرَه أنْ يوطىءَ الخيلَ تُخوم البلقاء، وذلك لإرهابِ الرُّوم،

= فولدت له محمداً، ومات عنها، واوصى أنْ تغسله، ثم تزوجها سيِّدُنا علي بن ابي طالب فولدت له يحيىٰ.

كانت أسماء من أكرمِ النّاسِ أصهاراً، فمن أصهارها رسولُ الله ﷺ: وحمزةُ والعبّاس وغيرهم. ولها أخبار تدلُّ على فضلها. وكانت مِنْ خيار الصحابيات، وروت عن النّبي الكريم ستين حديثاً، وروىٰ عنها عدد من كبار الصَّحابة والتّابعين (عن سير أعلام النبلاء وأسد الغابة وتهذيب الأسماء واللغات والمجتبى بتصرف).

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٣٤) وأنساب الأشراف (١/٤٠٠).

(٢) انظر أنساب الأشراف (١/٤٠٦).

وإعادة الثِّقة إلىٰ قلوب العـرب المسلمين الضَّاربين على الحدود.

وتكلَّم ناسٌ في أمير الجيشِ أسامة لحداثة سنِّهِ فقال النَّبي الحبيبُ ﷺ: «إنْ تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارةِ أبيه مِنْ قبلُ، وأيم الله إنْ كان لخليقاً للإمارة، وإنْ كان من أحبِّ النَّاسِ إليَّ، وإنَّ هذا من أحبِّ النَّاس إليَّ بعده»[1].

وانتظمَ النَّاسُ في جيش أسامة بالجُرُفِ ـ مكـان على فرسخ من المدينة ـ ولكنَّ مرضَ رسول الله أقلقهم، وكانت أمُّ الأمير الصَّحابيةُ أمُّ أيمنَ بقربهِ ﷺ تقومُ على خدمته كعادتها، ودخلت على النَّبي الكريم فقالت: أيْ رسول الله لو تركتَ أسامة يقيمُ في معسكره حتى تتماثل فإنَّ أسامةَ إنْ خرجَ على حالته هذه لم ينتفعْ بنفسه. فقال رسول الله ﷺ: «أنفذوا بَعْثَ أسامة»[2]. ثم قال لأسامة: «أُغْدُ علىٰ بركةِ الله»[3]، فودَّعه أسامة وخرج إلى معسكره، وبينما هو يريدُ الرّكوب إذا رسول أمِّه أمّ أيمنَ قد جاء يقول: إنَّ رسولَ الله ﷺ يموتُ، فأقبلَ سَيِّدنا أسامة، وأقبل معه سيِّدُنا عمر وسيِّدُنا أبو عبيدة ـ رضي الله عنهم ـ، فانتهوا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو يموت.

---

(١) انظر صحيح البخاري، باب بعث النبي ﷺ أسامة.

(٢) المغازي (٣/١١١٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٩٠ و ١٩١)، وانظر عيون الأثر (٢/٣٥٦).

* وتوفي النَّبي الكريمُ وتسرَّبَ النَّبأُ الفادحُ، وأظلمتْ علىٰ المدينة أرجاؤها وآفاقها، وانفطرت قلوب النَّاس حزناً، ووقفت أمُّ أيمنَ حزينةً باكيةً رسولَ الله، وتراءت صورٌ أمامَ عينيها، فتذكرت محمداً الابن والرَّسولَ والولي والكريم، فانطلقت ترثي الحبيبَ ﷺ:

عينُ جودي فإنَّ بذلك للدَّ
مْع شِفاءً فأكثري م البكاءِ

حين قالوا الرَّسولُ أمسىٰ فقيداً
ميِّتاً كانَ ذاك كلَّ البلاءِ

وابكيا خيرَ مَنْ رُزئناهُ في الدُّنْـ
ـيا ومَنْ خصَّهُ بوحي السَّماءِ

بدموعٍ غزيرةٍ منكِ حتىٰ
يقضيَ اللهُ فيكِ خيرَ القضاءِ

فلقد كان ما علمتُ وَصُولاً
ولقد جاءَ رحمةً بالضِّياءِ

ولقد كان بَعْدَ ذلكَ نوراً
وسراجاً يُضيءُ في الظَّلماءِ

طيِّبَ العُودِ والضَّريبةِ والمعْـ
ـدِنِ والختم خاتَم الأنبياءِ[1]

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٢/٣٣٢ و٣٣٣)، وانظر كتاب منح المدح لابن سيد الناس (ص ٣٣٧).

* ولعلكَ عزيزي القارىء تستغرب مِنْ أمِّ أيمنَ ـ عسراء اللسان ـ أنَّها تنطقُ بالحكمة والشِّعر، وهذا ليس بغريب، إنَّه الصِّدقُ والإيمانُ والبركة مِنْ رسول الله ﷺ، فقد عَلِمَتْ به ﷺ ما لم تكن تعلم.

* ومِنَ الطَّريف والمفيد ذكره في هذا المقام أنَّ ابنَ سيِّد النَّاس قد ذكر شعراء الصحابة الذين مدحوا أو رَثَوْا رسول الله ﷺ في كتابه النَّفيس «مِنَحُ المِدَحِ» وعدَّ منهم أمَّ أيمنَ فقال مِنْ قصيدةٍ طويلة:

ولأمِّ أيـمـنَ وابـنـة الـعـدوي عـا
تـكـة الـرثـاء فـحـبـذا مـغـزاهـمـا

كما ذكر النِّساء اللاتي رثينَ رسول الله ﷺ[1].

* ولما بُويع سيِّدُنا أبو بكر الصِّديق بالخلافة انطلقَ الجيش بقيادة أسامة، ونفَّذ المهمة، وعاد فائزاً منصوراً راكباً على فَرَسِ أبيه زيد، ودخل المدينة واستقبلهم سيِّدُنا أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ مع المسلمين، وجميعهم مسرورون بنصر الله سبحانه وتعالى.

* * *

(١) انظر كتاب منح المدح (ص ٣٨ وص ٣٣٥) وما بعدها.

مَنْزِلَتُهَا ـ رضي الله عنها ـ:

* ظلَّتِ الصَّحابيةُ الجليلةُ أمُّ أيمنَ تحتفظُ بمكانتها ومنزلتها الكبيرة في نفوس الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وخاصة في نفسِ سيِّدنا أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وذلك لما توفي النَّبيُّ الكريمُ ﷺ قال أبو بكر لعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ: مُرَّ بنا إلى أمِّ أيمنَ نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلمّا رأتْهُما بكَتْ، فقالا لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما أبكي أنِّي لا أعلم أنَّ رسول الله ﷺ قد صار إلى خير ممّا كان فيه، ولكنْ أبكي لخبر السَّماء انقطع عنا، فهيَّجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها[1].

* وفي رواية أنَّها قالت: إنَّما أبكي على خبر السَّماء كان يأتينا غضاً جديداً كلّ يوم وليلة، فقد انقطع ورُفِعَ، فعليه أبكي، فعجبَ النَّاس مِنْ قولها[2].

* وذكر ابن الأثير فقال: إنَّ أبا بكرٍ وعمرَ كانا يزورانها كما كان رسولُ الله ﷺ يزورها.

* وظلتِ الحاضنة الكريمةُ تحتلُّ المهابةَ والكرامة في

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة، وانظر صفة الصفوة (٢/٥٥)، وانظر الإصابة (٤/٤١٦)، والمجتبى لابن الجوزي (ص ١٠٠).

(٢) انظر هذا في البداية والنهاية (٥/٢٧٥) وانظر أنساب الأشراف (١/٥٦٧).

نفوس النَّاس، وظلَّ طيفُها وطيفُ أولادِها يجولُ في أذهان النَّاس أنَّ هؤلاء أحِبَّةُ رسولِ الله، ذكر الزُّهري ـ رحمه الله ـ خبراً عظيماً عن هذا فقال:

* حدثني حرمَلة مولىٰ أسامة بن زيد أنَّه بينا ـ بينما ـ هو جالسٌ مع ابن عمرَ إذ دخل الحجاج بن أيمنَ فصلىٰ صلاةً لم يتمَّ ركوعها ولا سجودها، فدعاه ابن عمر وقال: أتحسبُ أنَّك قد صليتَ؟ إنَّكَ لم تُصَلِّ فَعُدْ لصلاتك، فلما ولّى قال ابن عمر: من هذا؟ فقلت: الحجاج بن أيمن ابن أمِّ أيمن، فقال: لو رآهُ رسول الله ﷺ لأحبَّه[1].

* ومما يُضاف إلىٰ رصيدِ الصَّحابية الكريمة أمِّ أيمن ما رواه مسلمةُ بن محارب قال: قال معاوية بن أبي سفيان لأسامةَ بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ: رحم الله أمَّ أيمن كأنِّي أرىٰ ساقيها وكأنَّهما ساقا نعامة.

فقال أسامة: كانت والله خيراً مِنْ هندٍ[2] وأكرمَ.

فقال معاوية: وأكرم أيضاً؟!.

فقال: نعم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إنَّ أكرمَكم عِنْد الله أتْقاكم ﴾[3] [سورات الحجرات: ١٣].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٦٦).

(٢) والدة معاوية رضي الله عنهما.

(٣) انظر أنساب الأشراف (١/٤٧٥).

* وبقي احترام أمُّ أيمنَ مستقراً في النُّفوس، وظلَّتْ مكانتها كبيرة تزدادُ مساحةً بعد مرور زمن طويل، ففي خبر طريف يشيرُ إلى ذلك ما رُوي: أنَّ ابنَ أبي الفُرات مولىٰ أسامة بن زيد، خَاصَمَ الحسنَ بن أسامة بن زيد ـ حفيد أمِّ أيمنَ ـ ونازعه، فقال له ابنُ أبي الفرات في كلامه: يا ابنَ بركة يريد أمَّ أيمنَ، فقال الحسنُ بن أسامة: اشهدوا، ورفع الأمر إلىٰ قاضي المدينة أبو بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم ـ قاضي عمر بن عبد العزيز ـ وقصَّ عليه القصة فقال أبو بكر لابنِ أبي الفرات: ما أردتَ إلىٰ قولك يا ابن بركة؟ قال: سميَتُها باسمها، قال أبو بكر: إنَّما أردتَ بهذا التَّصغيرَ بها وحالُها مِنَ الإسلام حالها، ورسولُ الله ﷺ يقول لها: يـا أمَّه ويا أمَّ أيمنَ وتقولُ له يا ابن بركة! لا أقالني الله إنْ أقلتُكِ، فضربه سبعينَ سوطاً[١].

* وظلَّ أحفادُ أمِّ أيمن يُنْسَبون إلىٰ وَلاءِ رسول الله ﷺ، وكان يُقال لهم: بنو الحبِّ.

* توفيت أمُّ أيمنَ ـ رضي الله عنها ـ بعد النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام بخمسةِ أشهر، وكان يوم وفاتها يوماً مشهوداً[٢].

* * *

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٢٢٦/٨) بتصرف يسير.

(٢) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٣٥٨/٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي ـ

بشارتُها بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنَّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنْهارُ خالدينَ فيها ومساكنَ طيِّبةً في جناتِ عَدْنٍ ورضوانٌ مِنَ اللهِ أكبر ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ [سورة التوبة: آية ٧٢].

* أمُّ أيمنَ الحبشية بقيةُ أهلِ بيت النَّبي الكريمِ ﷺ وإحدىٰ النِّساء الفاضلات السَّابقات إلى الخير.

* وهذه الصَّحابية الكبيرةُ إحدىٰ النَّماذج الطَّيبة في عصر النُّبوة، وإحدى النِّساء اللائي تُوفي رسول الله وهو عنهن راضٍ.

* هذه المرأةُ الطَّيبةُ المباركة مِنَ المهاجرات الأُوَل اللائي سلكن سُبُلَ الخير رغم صعوبة الطُّريق، فوصلنَ إلىٰ ما يبتغين، وقد نالت أمُّ أيمنَ البشارة بالجنَّةِ بفضل نقاء سريرتها وطهارة قلبها، ولذلك فقد أتحفها رسولُ الله ﷺ بالبشارة العظمى ـ الجنَّة ـ وبشَّر مَنْ يتزوَّجها بالجنَّةِ أيضاً.

* روىٰ خبر البشارة هذه فُضيل بن مرزوق عن سفيان بن عقبة قال: كانت أمُّ أيمنَ تَلْطُف ـ تكرم وتبرّ ـ النَّبيَّ ﷺ وتقومُ عليه فقال:

= (٤٩/٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٣٦٣).

«مَنْ سرَّه أنْ يتزوجَ امرأةً مِنْ أهلِ الجنَّةِ فليتزوجْ أمَّ أيمنَ»[1].

قال: فتزوَّجها زيد بن حارثة، وزيد ـ رضي الله عنه ـ أحد سادات الصَّحابة وحِبُّ رسول الله ومولاه، وأحد السَّابقين إلى الإسلام، فلمَّا سمع هذا الحديث مِنَ النَّبي الكريم سارع فتزوَّجها، فولدتْ له أسامة ـ الحِبُّ بنُ الحِبِّ ـ وما أدراك ما الحِبُّ بنُ الحِبِّ! رضي الله عنهم أجمعين.

* هذه أمُّ أيمنَ بَرَكَة، وحسبُها من البَرَكَةِ ما نالتْ مِنْ رسول الله من الإكرام والتَّكريم، وحسبُها من هذا الجزاء الأوفى ما نالت مِنَ الله جزاءً كريماً هو الجنَّة إنْ شاء الله.

* وبعد، فهل مِنْ مزيد في سيرة هذه الصَّحابية العطرة المعطار؟ لا شك أنَّ هناك الكثير الكثير، ولكنِّي أذكِّرُك أخي القارىء بأنَّ أمَّ أيمنَ قد روت عن النَّبي ﷺ خمسة أحاديث، وروىٰ عنها سيِّدُنا أنس بن مالك، وحنش بن عبدالله الصَّنعاني، وأبو يزيد المدني[2].

* وأزيدُكَ ـ أخي القارىء أيضاً ـ بأنَّ أمَّ أيمنَ تُعرفُ بأمِّ

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٢٢٤)، والإصابة (٤/٤١٦)، وانظر أنساب الأشراف (١/٤٧٢).
(٢) انظر تهذيب التهذيب (٢/٤٥٩).

الرُّبَيِّعُ بنْتُ مُعَوِّذ
رضي الله عنها

«لا يَدْخُل النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تحتَ الشَّجَرةِ»

حديث شريف

قال رسول الله ﷺ للربيع بنت معوذ ـ رضي الله عنها ـ:
«اسْكُبي لِيْ وضُوْءاً»

الرُّبَيّعُ بنتُ مُعَوِّذ
رضي الله عنها

البدايَةُ الخَيِّرةُ:

* الإيمان هبَةٌ مِنَ الله سبحانه يمنُّ به على مَنْ يشاء من عباده، وقد شاء الله أنْ يجعلَ الخيرَ في أهل المدينة المنوَّرة، الذين استجابوا لدعوة الإسلام، وتكوّنت منهم ومَنَ المهاجرين جماعة خيِّرة، نمت نموّاً طبيعيّاً سليماً على أساسٍ من التّقوى، كما تنمو الشّجرة الباسقة الطّيبة ذات الأصلِ الثّابتِ والجذر العميق.

* هذه الجماعة النّادرةُ حفّتْها العناية الإلَهية، وعزّزتها بالصّبر والإيمان لتحقيق مشيئةِ الله بها في الأرض، فكانت خيرَ أمة أُخرجت للنّاس، تأمرُ بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر.

* في المدينة المنورة، وفي تلك المجموعة الفريدة السّعيدة نشأتِ الصّحابيةُ الجليلة الرُّبَيع بنتُ معوِّذ بن عفراء

الأنصارية النَّجارية[1]، إحدىٰ السَّابقات إلى الإسلام من نساء الأنصار الفاضلات، وإحدى النِّساء الشَّهيراتِ من ذوات الشَّأنِ في الإسلام، ومن اللاتي ربَّاهن الإسلام تربيةً خيِّرةً مباركة، فجادت بالعطاء الخيِّرِ، وشاركت في الجهاد وفي نشر العلم والفضائل وكل خير.

* * *

الشَّجَرةُ الطَّيِّبةُ:

* الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ مِنَ الصَّحابيات اللائي عشْنَ في ظلِّ الإسلام، ونبتْن نباتاً حسناً من شجرة دانيةِ القطوف، مباركة الثمر، فأبوها معوِّذ بن عفراء من كبار أهل بدر الذين اطَّلع الله إليهم فقال: «**اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكم الجنَّة**»[2].

فلمَّا كان يوم بدر كان لأولاد عفراءَ شأنٌ عظيمٌ، تركوا فيها أثراً مباركاً طيِّباً، فقد خرج عُتبة بن ربيعة أبو الوليد بين أخيه شيبةَ وولده الوليد بن عتبة حتى فصل من صفِّ المشركينَ ودعا للمبارزة، فخرج إليه فتيةٌ مِنَ الأنصار ثلاثة إخوة أشقاء وهم معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء، فقالوا: مَنْ أنتم؟.

---

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر (١٢/٤١٨).

(٢) رواه الإمام البخاري في المغازي (٥/٩٩) باب: فضل من شهد بدراً.

قالوا: رهطٌ مِنَ الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم حاجة.

فناداهم النَّبي الكريم ﷺ أنِ ارجعوا إلى مصافِكم وليقُمْ إليهم بنو عمِّهم، فخرج إليهم سيِّدنا حمزة بن عبد المطلب، وعليٌّ بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث رضوان الله عليهم، فنصرهم الله سبحانه وقُتل أئمةُ الكفر.

* وقد شارك معوِّذ بن عفراء في تحطيم رأس الكفر المتمثِّل في شخصية فرعون الأمة أبي جهل بن هشام، ذكر ابن قدامة المقدسي أنَّ معوذاً شهد بدراً مع أخويه وقَتَلَ أبا جهل ثم قاتل حتى قُتلَ ـ رضي الله عنه[1] ـ.

* ولذلك ترحَّم النَّبيُّ ﷺ على ابني عفراءَ فقال: «رحمَ الله ابني عفراءَ اشتركا في قَتْلِ فرعون هذه الأُمَّة ورأس أئمة الكفر» فقيل: يا رسول الله مَنْ قتله معهما؟ قال: «الملائكةُ، وذففَّه ابنُ مسعود»[2].

* ومما هو جدير بالذكر أنَّ معوذاً قد كسبَ شرفاً عظيماً قبل بَدْرٍ، إذ كان أحد السَّبعين ليلةَ العقبة مع أخويه مُعاذ

---

(١) الاستبصار (ص ٦٦).

(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/٤٢٣ و ٤٢٤) وذففه: أجهز عليه، وانظر عيون الأثر (١/٣١٥).

وعوف[1]، وبنو عفراء هؤلاء ممن تركوا أثراً خيراً مباركاً في بدر، وممن تركوا حسرة في قلوب المشركين يومذاك، ومما يشير إلى ذلك ما قالته هند بنت عتبة حين أُصيب أهل بدر:

لـــن يـــزالَ الـــمـــصـــابُ قـــلـــبـــي كـــئـــيـــبـــاً
مـــســـعـــرَ الـــحـــربِ مـــن بـــنـــي عـــفـــراء

* أما زوج الرُّبيع فهو أحد كبار المهاجرين وهو إيَاس ابن البكير الليثي، وقد ولدت له ابنه محمّد بن إيَاس.

* كانت الرُّبيعُ بنتُ معوذ ـ رضي الله عنها ـ تعتزُّ بهذا الشَّرفِ العظيم الذي حققته أسرتُها المعطاء في مطلع النُّور بالمدينة المنورة، وكانت من النِّساء اللائي حظينَ بمكارم كثيرة من النَّبي الكريم ﷺ، ويكفيها شرفاً وفخراً أنَّ رسولَ الله كان يزورها ويقبلُ هديتَها.

* * *

مِن مناقِبِهَا:

* لهذه الصَّحابية الكريمة مناقبُ جمَّة بوأتْها مكاناً علياً بين نساء المسلمين، وعند نساء الأنصار بشكل خاص، ومنقبة ذكرتْها الرُّبيعُ جعلتها تعيشُ في عالم عُلْوي رائعٍ،

---

(١) انظر في هذا البداية والنهاية (١١٦/٣).

ولم تكن هذه المنقبة إلا زيارة مباركة مِنَ النَّبي الكريم لهذه الصَّحابية حينما تزوّجت، لذلك ظلّتْ تحمل في ذاكرتها طيفَ تلك الزِّيارة المعطار التي ظلت تشعرُ ببركتها إلى أنْ لقيتْ ربَّها، وقد ذكر الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ خبر هذه الزِّيارة وسببها فقال: وقد زارها النَّبيُّ ﷺ صبيحةَ عرسِها صلةً لرحمِها[1].

* أمّا قصة هذه الزِّيارة المباركة فقد تكفّل الإمامُ البخاري رحمه الله بروايتها في صحيحه، إذْ روى بسنده عن خالد بن ذكوان قال:

قالتِ الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ بن عفراءَ: جاء النَّبيُّ ﷺ فدخلَ عليَّ حين بُني عليَّ، فجلسَ على فراشي كمجلسكَ مني، فجعلتْ جُويرياتٌ لنا يضربنَ بالدُّفِّ ويندبنَ مَنْ قُتِلَ من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبيٌّ يعلمُ ما في غَدٍ، فقال: «دعي هذا وقولي بالذي كنتِ تقولين»[2].

* ومما يفيد ذكره هنا أنَّ النَّبي الكريمَ ـ وهو المعلِّم المربِّي ـ قد أنكر على الجاريتين ما ذكرتاه من أنَّه ﷺ يعلمُ الغيب، لأنَّ عِلْمَ الغيب ممَّا اختصَّ اللهُ سبحانه وتعالىٰ به نفسه، أمَّا ما كان يخبرُ به النَّبي الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٩٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح (٧/٢٥)، وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٣)، والإصابة (٤/٢٩٣).

من الغيوبِ، إنَّما هو بإعلامِ اللهِ إياه، كما ذكر سبحانه ﴿ عالم الغيبِ فلا يُظهر علىٰ غيبه أحداً * إلا مَنِ ارتضىٰ مِنْ رسول... ﴾ [سورة الجن: ٢٥ و٢٦]، مِنْ هذا المنطلق نهىٰ رسول الله الجاريةَ عن مقولتها.

* * *

هَديَّةٌ وإكْرَام:

* الكرمُ صِفةٌ جميلةٌ في النَّاس، وما يبذله النَّاس إنْ هو إلا رصيد إيمانيٍ لهم يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، والأنصار ممنِ اتَّصفُوا بالجود والكرم، وكانوا يتحفون النَّبيَّ الكريمِ بالهديَة، ويتحرَّوْن ما يحبُّه ﷺ لِيُدخلوا السُّرور إلى قلبهِ الشَّريف.

* وكانتِ الصَّحابية الكريمةُ الرُّبيعُ ـ رضي الله عنها ـ تهدي إلى النَّبي الكريمِ ما يحبُّه مِنْ طعامٍ، فقد أخرج الطَّبرانيُّ عن الرُّبيعِ بنتِ معوّذ بنِ عفراء ـ رضي الله عنهما ـ قالت:

بعثني معوَّذُ بنُ عفراءَ بصاعٍ من رُطَب عليه أَجْرٍ[١] من قثاء زُغْب إلى رسول الله ﷺ، وكان النَّبيُّ ﷺ يحبُّ القثَّاء، وكانت حِلْيَةٌ قد قدمت من البحرين، فملأ يده منها

(١) أجر: الصغير من كل شيء، والمقصود هنا صغار القثاء عليها الوبر

فأعطانيها، وفي رواية: فأعطاني مـلء كفي حلياً أو ذهباً، وزاد أحمد: فقال: «تحلَّيْ بهذا»[1].

* لقد قبل النَّبي الكـريم مِنَ الرُّبيـع هديتَهـا وعرف قدرها، ولكنّه أعطاها ما هو أفضل، فهو ﷺ أَجْوَد ولد آدم، يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشىٰ الفاقة ـ الفقر ـ وهذا ما جعل موسىٰ بن هارون الحمّال يقول عن ضيفةِ حلقتنا ـ رضي الله عنها ـ: الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ بن عفراءَ قد صحبتِ النَّبيَّ ﷺ ولها قَدْرٌ عظيم[2].

* * *

عِلْمُهَا وفقْهُهَا:

* أسلمت الرُّبيعُ بنتُ معوذ ـ رضي الله عنها ـ وبايعتِ النَّبي ﷺ، ونهلت مِنَ المعين النَّبوي الصَّافي وعرفت كثيراً من أحكام الإسلام عن كَثَب، فقد كان النَّبي الكريم ﷺ كثيراً ما يغشىٰ بيتها ويتوضأ ويصلي ويأكل عندها.

وكانتِ الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ تشعرُ بالبركة في زيارة النَّبي الكريم لها، وكانت تتعلَّم منه أمور الدِّين وتتفقه

= الناعم الذي هو الزغب.

(١) مجمع الزوائد (١٣/٩)، والاستبصار (ص ٦٦).

(٢) الاستيعاب (٣٠٢/٤).

بأحكامهِ؛ لذلك عرفَ الصَّحابةُ والمسلمون قدرها فأكبروها، وكان كبارُ الصَّحابةِ ـ رضوان الله عليهم ـ يأتونَها فيسألونها عمّا شاهدته أو سمعته مِنْ رسولِ الله ﷺ.

* روي أنَّ سيِّدَنا عبدَالله بن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أتاها فسألها عن وضوء رسول الله ﷺ[1]، فقد عُرِفَ عن الرُّبيع ـ رضي الله عنها ـ أنَّها الصَّحابيةُ الرَّاويةُ لصفةِ وضوء النَّبي الكريمِ ﷺ، فقد أخرج الإمامُ أبو داود في سننه بسنده عن محمَّد بنِ عقيل عن الرُّبيعِ بنتِ معوذ بن عفراء قالت:

كان رسول الله ﷺ يأتينا، فحدَّثتنا أنه قال: «اسكُبي لي وضوءاً» فذكرتْ وضوءَ رسول الله ﷺ، قالت فيه: فغسلَ كفَّيه ثلاثاً، ووضَّأ وجهه ثلاثاً، ومضمضَ، واستنشق مرةً، ووضَّأ يديه ثلاثاً ثلاثاً، ومسحَ برأسهِ مرتين يبدأ بمؤخر رأسه ثمَّ بمقدمه، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما، ووضَّأ رجليه ثلاثاً ثلاثاً[2].

* وهكذا فقد رسمت الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ صورةً وضيئةً مباركة لوضوءِ رسول الله ﷺ كأنَّك تراه، فنعْمَ الموصوف ونعْمَ الوصف!

* * *

---

(١) الاستبصار (ص ٦٦).

(٢) انظر سنن أبي داود (١/ ٢٠) باب: صفة وضوء النبي ﷺ.

لَوْ رأَيْتَه:

* رزقَ الله سبحانه وتعالى الصَّحابيةَ الجليلةَ الرُّبيعَ بنتَ معوذَ عقلًا كبيراً صافياً، فكانتْ حافظةً لاقطةً متقنةً، وقد وصفت رسول الله ﷺ وصفاً جميلًا، ويدلُّ على هذا ما رواه أبو عبيدة بن محمَّد بن عمَّار بن ياسر قال: قلتُ للرُّبيع بنت معوذ بن عفراء: صفي لي رسول الله ﷺ، فقالت: يا بُنيَّ لو رأيْتَهُ لرأيتَ الشَّمسَ طالعةً[1].

* أعْظِمْ بهذا الوصف وأكرِمْ به مِنْ موصوف! فقد أرادتِ الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ أنْ تصفَ رسول الله ﷺ بأفضل لفظٍ وأجمل صفة، فهو كالشَّمس يضيء كل شيء، بل هو ذو فضائل لا يمكن لبشر أنْ يحصرَها في كلمات، كما أنَّ صفاتَه لا يمكن أنْ تُحصَر في جملة واحدة.

* رُوي عن عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنَّها وصفت رسول الله ﷺ فقالت: واللهِ كان كما قال شاعرُه حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

متى يَبْدُ في الداجي البهيم جبينُه
يَلُحْ مثل مصباح الدُّجى المتوقِّدِ

---

(١) انظر دلائل النبوة للأصبهاني (٢/٧٧٥)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٩١٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/٢٠٠).

فـمَنْ كـان أوْ من قـد يكـونُ كـأحـمـد
نـظامٌ لـحـقٍّ أو نَـكَـالٌ لِـمُـلْحِـدِ[1]

مشارَكَتُهَا فيْ الجِهَادِ:

* سارعتِ الصَّحابيةُ الجليلة الرُّبيع بنت معوذ إلى نُصرة الإسلام، وساهمت مساهمةً فعَّالةً في ساحة الجهاد ضمن الحدود التي شرعهـا الإسلام للمـرأة، فقد كـانتِ النّساءُ يخـرجن مـع النَّبي الكـريم ﷺ لسقي المـرضى ومـداواة الجرحىٰ، وكانت نساء الأنصار يخرجن مع رسول الله ﷺ لهذا الغرض النَّبيل، فقد أخرج الطَّبـراني عن الصَّحابيـةِ الكريمةِ أمّ سُلَيم بنت ملحان[2] ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت: كانَ النَّبيُّ ﷺ يغزو معه نسوةٌ مِنَ الأنصار فيسقين المرضى ويداوين الجرحى.

* وهذا يتوافقُ مع ما أخرجه الإمامُ البُخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن خالد بن ذكوانَ عن الـرُّبيعِ بنتِ معـوِّذ ـ رضي الله عنهما ـ قالت: كنَّا نغزو مع رسول الله ﷺ نسقي القومَ ونخدمُهم، ونردُّ القتلىٰ والجرحى إلىٰ المدينة.

* ولما كانت بيعـة الرِّضـوانِ في السَّنةِ السَّـادسة مِنَ

(١) انظر كتاب مِنح المدح لابن سيد الناس (ص ٧٢)، وانظر ديوان حسان بن ثابت (ص ٣٨٠).
(٢) اقرأ سيرة الصحابية المباركة المعطاء أم سليم في هذا الكتاب.

الهجرة، كانتِ الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ مِنَ اللاتي بـايعنَ النَّبي الكريم ﷺ تحت الشَّجرة، فنالتِ الرِّضوان، وفازتْ مع مَنْ فازَ في هذه البيعة المباركة.

* * *

أنا ابنَةُ قَاتلِ عَبْده:

* في حياةِ الصَّحابيةِ الكريمة الرُّبيع بنت معوِّذٍ ـ رضوان الله عليها ـ، مواقف فيَّاضة بالشَّجاعة والكرامة تشيرُ إلىٰ عزَّتِها بالله، وتدلُّ على حبِّها الشَّديد للإسلام، وهذا الحبُّ يفوقُ كلَّ شيءٍ، فلا تَأْبَه بأحدٍ ما دام هذا يخالفُ الشَّريعة، وفي الموقف التَّالي الذي ترويه الرُّبيعُ نفسها وينقله عنها أصحاب السِّير والتَّراجم ما يبعثُ في النَّفس الإعجاب بهذه الصَّحابية التي استمتعَتْ في جوار النَّبي الكريم ﷺ بربيعٍ دائمٍ مِنَ العلم، فأضحتْ علاقتُها بعيدةً عن عَرَضِ الدُّنيا ومتاعها، تقول القصة:

كانت أسماءُ بنتُ مخرِّبة تبيعُ العطرَ بالمدينة، وهي أمُّ عياش وعبدالله ابني أبي ربيعة المخزوميِّين، فدخلتْ أسماءُ هذه على الرُّبَيِّعِ بنتِ معوِّذ ومعها عطرها في نَشْوَةٍ فسألَتَها فانتسبت الرُّبيعُ، فقالت لها أسماءُ: أنتِ ابنةُ قاتلِ سيِّده ـ تعني أبا جهل ـ.

قالتِ الرُّبيعُ: بل أنا ابنةُ قاتلِ عبدَه.

قالت: حرامٌ عليَّ أَنْ أبيعَك من عطري شيئاً.

قلتُ - أي الربيع -: وحرامٌ أَنْ أشتريَ منه شيئاً، فما رأيتُ لعطرٍ نتناً غير عطرك، ثم قمتُ، وإنَّما قلتُ ذلك في عطرها لأغيظها[1].

* * *

لكَ كُلُّ شَيءٍ:

* الحياةُ الزَّوجيةَ لا تخلو مِنْ عواصفَ تهزُّها، ومتاعبَ وصعوباتٍ تحيطُ بها، فتتعسَّرُ المعيشة أحياناً بين الزَّوجين فيكون الفراقُ بالإحسان، وهذا ما حدثَ للرُّبيعِ - رضي الله عنها - مع زوجها إياسِ بنِ البكير، إذْ وجدتْ معه صعوبةً في الحياة، ولم تعُدْ تستطع متابعة الطَّريق معه، فلجأتْ إلىٰ سيِّدنا عثمانَ بنِ عفانَ - رضي الله عنه - لحلِّ مشكلتها، ولنتركِ الحديثَ لصَاحبة العَلاقةِ نفسها فتقول: كان بيني وبين ابن عمي كلامٌ - وهو زوجها - فقلتُ له: لكَ كلُّ شيء وفارِقْني.

قالَ: قد فعلتُ.

---

(١) انظر هذه القصة بمعان واحدة في طبقات ابن سعد (٨/ ٣٠٠ و ٣٠١)، والمغازي (١/ ٨٩)، والاستيعاب (٤/ ٣٠١ و ٣٠٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٩)، والاستبصار (ص ٦٧)، وأسد الغابة =

قالت: فأخذَ ـ واللهِ ـ كلَّ شيء حتى فراشي.

فجئتُ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ فذكرتُ له ذلك ـ وقد حُصِر[1] ـ فقال: الشَّرطُ أَمْلَكُ، خُذْ كـلَّ شيء لها حتى عقاص راسها إن شئتَ[2].

* وكان ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ يسألُها عن قضاءِ سيِّدنا عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ حين اختَلَعَتْ مِنْ زوجها إياس.

* * *

الرَّاوِيَةُ المُحدِّثَةُ:

* الرُّبيعُ بنتُ معوِّذ ـ رضي الله عنها ـ إحـدىٰ النِّساء اللائي كَتَبَ الله لهنَّ شرفَ الصُّحبة النَّبويةِ، وشرفَ الجهاد مع النَّبيِّ الكريمِ ﷺ، وكانت إحدىٰ راويات الحديث النَّبوي الشَّريف، إذ كانت حافظةً واعيةً روتْ عن رسول الله ﷺ واحداً وعشرينَ حديثاً.

* روىٰ عن الرُّبيعِ عَدَدٌ مِنْ أجلَّاء التَّابعينَ وعلمائهم منهم: عـائشةُ بنتُ أنس بن مـالك، وسليمـانُ بن يسـار،

- ترجمة رقم (٦٩١٠).

(١) كان ذلك سنة (٣٥) هجرية.

(٢) انـظر سير أعـلام النبلاء (٣/٢٠٠) والإصـابة (٤/٢٩٤) بلفظ قريب.

وخالد بن ذكوان، وعبدُالله بن محمَّد بن عقيل، وأبو عُبيدة محمَّد بن عمَّار بن ياسر[1]، وروىٰ لها البُخاري ومسلم واتفقا علىٰ حديث واحد، كما روىٰ لها الجماعة.

* كانتِ الرُّبيعُ ـ رضوان الله عليها ـ مثالاً للمرأةِ المسلمة في علمِها وروايتها للحديث النَّبوي الشَّريفِ، وعَرَفَ المسلمون قَدْرها، وأكبروا علمَها، فكان عددٌ منَ الصَّحابة والتَّابعين يأتونها فيسألونها عمَّا تعرفه مِنْ أحكامِ الشَّريعة، وقد روىٰ عنها أهل المدينة لعِلْمِهِم بمكانتها عند رسول الله ﷺ، فمِنْ مروياتها ما رُوي في الصَّحيحين بسندٍ عن خالد بن ذكوان عن الرُّبيع بنتِ معوذ قالت: ـ اللفظ للبخاري ـ:

أرسلَ النَّبيُّ ﷺ غداةَ عاشوراءَ إلى قرىٰ الأنصار: مَنْ أصبحَ مفطراً فليتمَّ بقيةَ يومِهِ، ومَنْ أصبح صائماً فليصُمْ. قالت: فكنَّا نصومُه ونصوِّمُ صبيانَنا ونجعلُ لهم اللعبةَ مِنَ العِهْنِ ـ الصُّوف ـ فإذا بكىٰ أحدهم علىٰ الطَّعامِ أعطيناه ذاكَ حتى يكون عند الإفطار[2].

* وقد أُثِرَتْ عنِ الرُّبيعِ ـ رضي الله عنها ـ بعضُ الكرامات التي تدلُّ على فضلِها وفضلِ أبيها ـ رضي الله

(1) تهذيب التهذيب (١٢/٤١٨)، والاستيعاب (٤/٣٠٢)، وسير أعلام النبلاء (٣/١٩٨).

(2) صحيح الإمام البخاري (٣/٤٥ و٤٦)، وانظر تهذيب الأسماء

عنهما ـ، فقد كانت ورعةً تقيةً كثيرةَ التَّردُّدِ على أمِّ المؤمنينَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ، لتتزودَ مِنْ علمِها وفقهها وأدبها[1].

* وفي سنة (٤٥) مِنَ الهجرة النَّبوية الشَّريفة، توفيتِ الرُّبيعُ ـ رضي الله عنها ـ في أيام سيِّدنا معاويةَ بن أبي سفيان بعد أنْ عَمَّرتْ دهراً قضَتْه في الخير والعلم والجهاد ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

* * *

بشارَتُهَا بالجَنَّةِ:

* قال تعالىٰ: ﴿ لِيُدخِلَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنَّاتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ويكفِّرَ عنهم سيئآتهم وكانَ عندَ الله فوزاً عظيماً ﴾ [الفتح: ٥].

* الصَّحابية الكريمةُ الرُّبيعُ بنتُ معوذٍ ـ رضي الله عنها ـ، إحدىٰ الصَّحابيات المباركات اللاتي سارعن إلى الإيمان بالله، وهي إحدىٰ السَّابقات إلى ميدان الفضائل والمكارمِ، وكانت ممَّنْ شارك في البيعة تحت الشَّجرة. قال النَّووي ـ رحمه الله ـ وغيره من أصحاب التَّراجم؛ عن الرُّبيع رضي

= واللغات للنووي (٢/٣٤٤).

(١) انظر في كرامتها دلائل النبوة للبيهقي (٧/١١٦).

الله عنها: وهي مِمَّنْ بايعَ رسولَ الله ﷺ تحت الشَّجرة بيعة الرِّضوان[1].

* كانتِ البيعةُ المباركةُ تحتَ الشَّجرة بالحديبية، والشَّجرةُ سَمُرة، بايَع المسلمونَ الله ورسوله على بيعِ أنفسهم بالجنَّةِ للزومهم النُّصرة[2]، والصَّبر والجهاد، وكانوا فيما رواه سيِّدُنا جابر بن عبدالله ألفاً وأربعمئة مِنَ المهاجرين والأنصار، وكلُّ واحدٍ منَ المبايعين يترقَّبُ يومَ الظَّفر، ويومَ الاستشهاد؛ بنفسٍ راضية وقلبٍ مطمئنٍ موصولٍ بالله سبحانه وتعالى.

* مع تلك المجموعة السَّعيدة المباركة، كانت بطلةُ ترجمتنا الرُّبيعُ عليها رضوان الله، وبايعتِ النَّبيَّ الكريمَ ﷺ، والله العليُّ القديرُ حاضرُ البيعة، ويده فوق أيديهم، وهذه الفئةُ المؤمنة سمعتْ بمرضاةِ الله تعالى حيث قال عز وجل: ﴿لقد رضيَ الله عنِ المؤمنينَ إذْ يبايعونَك تحتَ الشَّجرةَ فعلِمَ ما في قلوبهم فأنزلَ السَّكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ [الفتح: ١٨].

* كما أنَّ جماعة المؤمنين هؤلاء، خصَّهم رسولُ الله ﷺ

---

(١) انظر في هذا: تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٣)، والإصابة (٤/٢٩٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٦٩١٠)، والأعلام للزركلي (٣/٣٩).

(٢) انظر تفسير الماوردي (٤/٥٩) وما بعدها.

بالخَيْرية فقال: «أنتم اليومَ خيرُ أهلِ الأرض»[1]. أضفْ إلى ذلك كله أنَّ الله سبحانه قد وصفَ المؤمنين في التَّوراة والإنجيل، ووعدهم بالمغفرة والأجرِ العظيم، ومَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ حديثاً؟.

* وكانتِ الرُّبيعُ ـ رضي الله عنها ـ ضمنَ المجموعة المؤمنةِ المبايعة بيعة الرِّضوان، فحظيتْ ببشارة رسول الله ﷺ بالجنَّة، روى سيِّدُنا جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لا يدخل النَّار أحدٌ ممَّنْ بايعَ تحت الشَّجرةِ»[2].

* وفي صحيح الإمام مسلم إشارة أخرى تبشِّرُ بالجنَّةِ البدريين والشَّجريين، فعن جابر بن عبدالله أنَّ عبداً لحاطب بن أبي بلتعةَ جاء يشكوه إلى رسول الله ﷺ ويقول: ليدخلنَّ حاطبٌ النَّارَ، فقال له الرسول ﷺ: «كذبتَ لا يدخلُها، شهد بدراً والحديبية»[3].

* وبعد؛ فهذه لمحاتٌ مِنْ سيرةٍ عطرةٍ لصحابية مباركةٍ صدقتْ ما عاهدتِ الله عليه، رضي الله عن الرُّبيع بنت معوذ وعن أبيها وعن سائر الصَّحابة أجمعينَ، وفي الختام نقرأ قوله تعالى: ﴿ إنَّ المتَّقينَ في جنَّات ونَهَر * في مَقْعَدِ صِدْقٍ عنْدَ مَلَيْكٍ مُقْتَدر ﴾ [القمر: ٥٤ و ٥٥].

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الحديبية.
(٢) أخرجه الإمام أحمد، وانظر تفسير ابن كثير (٤/٢٠٢).
(٣) أخرجه الإمام مسلم (٧/١٦٩).

سُمَيَّةُ بنتُ خُبَّاط
رضي الله عنها

«صَبراً آلَ ياسِر فإنَّ مَوعِدَكمُ الجنَّةُ»

حديث شريف

«... اللهمّ لا تُعذِّبْ أحَداً مِنْ آلِ ياسِرَ بالنَّارِ»

حديث شريف

سُمَيةُ بنتُ خُبَّاط
رضي الله عنها

الأُسَرةُ الياسِريّةُ:

* هـذه الأسرة العـظيمة جمعتْ كـلَّ فضائـل الصَّبـرِ والجهاد، وفاحت فضائلُها بالطِّيب فكانت مضربَ المثل في صدْقِ الإيمان، والوفاء بعهد الله.

* تأتي هذه الأسرةُ المباركة مِنْ أماكنَ متفرقة؛ ولكنها تجتمع في مكةَ البلد الأمين الذي كان مطلع النُّور منه، ومن هناك بدأتِ الأسرة الياسريةُ بالتَّكْوين.

* يعود أصل ربِّ الأسرةِ هذه، وهو ياسر بن عامر بن مالك إلى اليمن، قدم إلى مكةَ يطلبُ أخاً له وبصحبته أخواه، الحارث ومالك ابنا عامر، فرجع أخواه إلى اليمن، وأقام ياسر في مكةَ حيث استعذبَ المقام فيها، وهناك حالفَ أبا حذيفة بن المغيرة بن عبدالله المخزومي، ثم زوَّجه أبو حذيفة أَمَةً اسمُها سُميَّة بنت خُبَّاط فولدت له عمّاراً، فأعتقه

أبو حذيفة[1]؛ ولمْ يزلْ ياسر وعمار مع أبي حذيفة إلى أنْ مات.

* كان لعمار أخوان آخران هما: عبدالله وحُريث، وقد قُتِلَ حريثٌ في الجاهلية. من هنا تكوّنت هذه الأسرة التي حفلتْ بالتّضحية وألوان الجهاد المعطار، وخطّتْ أحرفاً منْ نور في مطلعِ فَجْرِ الإسلام ما زالت تشعُّ بالنُّور إلىٰ يومنا هذا، وتفيض بالبركة إلى آخر الدُّهرِ.

* * *

السّابقُون الأَوُّلُونَ:

* ما إنْ أشرقت مكة بنور الإسلام، حتى سارعت الأسرة الياسريّةُ بأركانها إلى الإيمان بالله، وإلى تصديق النّبي الكريم ﷺ، وساعةَ أعلنتِ الأسرةُ المباركة إسلامها سجّلَها التّاريخ وشهد لها بالخلود والبقاء في الضّمائر والقلوب.

* كانت ـ بطلةُ ترجمتنا ـ سميّةُ بنتُ خبّاط[2] أَمَةً لا يتعدىٰ شأنُها إلا القيام على خدمة سيِّدها أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي؛ بل لم يكـن لها مِنْ ذكرٍ في مكةَ كلِّها،

---

(١) انظر السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٩٢)، وأنساب الأشراف (١/١٥٧).

(٢) ذكرت في بعض المصادر بالياء ـ خياط ـ.

فقد كانت امرأة كبيرة طاعنة في السِّنِّ، غير أنَّ عقلها يرشح بالصَّفاء، وقلبها ينبض بالتَّوقد والنَّشاط.

* أسلمت سميةُ وصدَّقت بالنَّبي ﷺ، واهتدت إلى سواء السَّبيل، فنالتِ الكرامة والخلود، وكانت كما قال عنها الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ: من كبارِ الصَّحابيات[1].

* وقُيِّدتْ سميةُ في سجل الخالدين، فإذا ما ذُكِرَ الأوائلُ في الصَّبر والجهاد ذُكرتِ الصَّحابية الجليلة سميّة، وإذا ذُكرَ الشُّهداء جاءت في القائمة الأولىٰ يلمعُ اسمها في أولِ الأسماء، ينضح بالطِّيب، ويذكُرُ بالصَّبر، ويشير إلى الخلود.

* * *

سَابعَةُ سَبْعَة:

* من الطَّريف في حياة هذه الصَّحابية الصَّابرة إيمانُها المبكِّر، فقد كانت ـ رضي الله عنها ـ من الرَّعيلِ الأولِ ممَن دخل الإيمان في قلوبهم، ولا شك أنَّ إيمانَها العميق بالله جعلها رائدةَ الصَّابراتِ الصَّامدات في مطلع النُّور، بل هي أول امرأة أظهرت إسلامها[2]، وكانت سابعة سبعة في

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٤٠٦).

(٢) هذا لا ينافي أن خديجة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أول الناس =

الإسلام[1]، ذكر الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ في كتابه القيِّم «سير أعلام النُّبلاء» الأرقام الأولىٰ للمؤمنين وجاءت سمية ـ رضوان الله عليها ـ في تعدادها، روىٰ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه هذا فقال:

أولُ مَنْ أظهـر إسلامـه سبعة، رسـول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار؛ وأمه ـ سميّة، وصُهيب، وبلال، والمقداد، فأمّا رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمِّهِ، وأمَّا أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأمّا سائرُهم، فألبسَهُم المشركون أدْراع الحديد وصفَّدوهم في الشَّمس، وما فيهم أَحَدٌ إلا وقد واتاهم ـ وافقهم ـ علىٰ ما أرادوا إلا بلال، فإنَّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان يطوفون به في شعاب مكةَ وهو يقول: أَحَدٌ أَحَد[2].

* وهنا بدأت رحلة العذاب مع هذه العُصْبة التي آمنت بربِّها فزادها هدىً وربط على قلبها إذ قامت فقالت: ربُّنا ربُّ السَّماواتِ والأرض، وكان في مقدمة الأسرة سُميَّة ـ رضي الله عنها ـ، فقد اشتدَّ الغيظُ بقريش، فلم يجدوا متنفساً لغيظهم إلا أنْ يثوروا على الضُّعفاء الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا واتَّبعوا

= إيماناً برسول الله ﷺ.

(1) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٠١٣).

(2) انظر سير أعلام النبلاء (١/٤٠٨ و٤٠٩)، وانظر كذلك البداية والنهاية (٥/٥٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٨١ و٢٨٢).

رسولَ الله محمداً ﷺ، وشجّعهم على ذلك أنَّ هؤلاء ليس لهم مَنْ يمنعهم أو يحميهم، فافتنُّوا في عذابهم أفانين تدلُّ علىٰ ما كان في صدورهم من حقْدٍ وغيظ على دعوة الإسلام، فأشبعوا رغباتهم المجنونة بعذاب سميّة وأسرتها.
ذكر ابن الأثير ـ رحمه الله ـ في كتابه «أُسْد الغابة» ما كانت تلاقيه من التّعذيب فقال: وكانت من السّابقين إلى الإسلام. . . وكانت ممن يُعذَّبُ في الله أشدَّ العذاب.

* * *

الأُسْرةُ الصَّابِرَةُ:

* لا يستطيعُ الإنسان إلا أَنْ يقفَ وقفةَ إعجابٍ أمام الأسرة الياسرية، هذه الأسرة الكريمة التي يُسِّرَتْ لليسرى، فأثارتِ عظماء مكة وكبراءها، وأخرجتْ حلماءَها عن طورِهم، بل كادوا يتميّزون من الغيظ كلّما رأَوْا أفراد الأسرة جميعاً راسخين مطمئنين، لا يخيفُهم عذاب، ولا يردُّهم عن عقيدتهم نَصَبٌ ولا رمضاء ولا عطش، ويثير موقف الأسرة هذه إعجاب المشركين أنفسهم بقَدْرِ ما يثير دهشتهم ويزيدُ من حيرتهم وغيظهم، فكانوا يُخرِجون عمّاراً وأباه وأمّه إلىٰ الفضاء إذا حَمِيتِ الرمضاء؛ ليرتدّوا عن دينهم، ولكنَّ الأسرةَ الصّابرة تزدادُ صلابةً وتزداد إيماناً وتسليماً وخصوصاً حينما

سمعتْ دعاءَ نبيِّ الله ﷺ للأسرة كلِّها بالمغفرة، يروي هذا سالم بن أبي الجعد قال:

دعا عثمانُ ناساً من أصحاب النَّبي ﷺ فيهم عمّار بن ياسر، فقال عثمان: أَمَا إنِّي سأحدثُكُم حديثاً عن عمار، أقبلتُ أنا والنَّبي ﷺ في البطحاء حتى أتينا على عمار وأمِّه وأبيه وهم يُعذَّبون فقال ياسر للنَّبي ﷺ: الدَّهرُ هكذا؟؛ فقال له النَّبي ﷺ: «اصبر»، ثم قال: «اللهم اغفرْ لآل ياسرَ وقد فَعَلْتَ»[1].

* * *

سُمَيَّةُ تتحَدَّىٰ:

* واصلتْ قريشٌ رحلةَ العذاب لسميةَ وزوجها وابنها، بينما واصلتِ الأسرة الياسريّة الطيِّبة رحلةَ الصَّبر والثبات وخاصة سمية ـ رضي الله عنها ـ التي قويت عقيدتها بعد موت زوجها ياسر تحتَ العذاب، عندها بدأت تتحدىٰ وتجابه بني المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، وفي مقدمتهم ـ أبو جهل ـ الذي غدا كالمسعور من مجابهةِ سمية له بسخرية، وكانت ـ رضي الله عنها ـ قد حطَّمت كبرياءه وصلفه بصبرها وثباتها،

(١) أخرجه الإمام أحمد، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٩٣) بلفظ قريب جداً، وانظر طبقات ابن سعد (٣/٢٤٨).

وفَطَرتْ قلبَه بعدم ذكرها رسول الله ﷺ بسوء ولو بكلمة واحدة.

* وكان أبو جهل ـ أخزاه الله ـ لا يترك وسيلةً في الصَّدِّ عن سبيل الله إلا واتَّبعها، ولا يجدُ طريقاً فيه تضييقٌ على المؤمنين إلا وسلكه، ذكر ابن إسحاق صورة حيّة عن هذا فقال:

وكان أبو جهل الفاسق ـ الذي يغري بهم في رجال من قريش ـ إنْ سمع برجلٍ قد أسلَمَ له شرفٌ ومنعة، أنَّبه وخزّاه وقال: تركتَ دين أبيكَ وهو خير منك، لَنُسفِّهنَّ حلمكَ، ولنفلين رأيك، ولنضعنَّ شرفَك. وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدنَّ تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه، وأغرىٰ به، لعنه الله وقبّحه[1].

* وظلتِ الصَّحابية الكريمة سميّة ـ رضي الله عنها ـ تتحمَّل العذاب، وتصبرُ على أذى أبي جهل صَبْرَ الأبطال، فلم تصبأ، ولم تهُنْ عزيمتها أو يضعف إيمانها الذي رفعها إلى مستوى الخالدات من النِّساء، بل الأوليات في لائحة الصَّابرات.

* * *

---

(١) عن البداية والنهاية (٥٩/٥).

أولُ شَهيدَة:

* كما كانت سمية ـ رضي الله عنها ـ أول امرأةٍ أظهرت إسلامها، كذلك كانت أول شهيدة قدَّمت نفسها في سبيل الله، فكانت شهيدة الحقِّ، علَّمتِ الأجيالَ حقيقةَ الصَّبر، وفي قصة استشهادها عبرة لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وذلك لما مات زوجها ياسر في العذاب، أُعطيت سميّة ـ رضي الله عنها ـ لأبي جهل الفاسق، أعطاها له عمُّه أبو حذيفة بن المغيرة، وصار الخبيثُ يتفنَّن في إيذائها، وإيذاءِ رسول الله ﷺ بالكلام والشُّتيمة وما شابه ذلك، وذات عشي أغلظ لها بالكلام ثم قال لها: ما آمنتِ بمحمّدٍ إلا لأنَّك عشقتيه لجماله، فما كان جوابها إلا أنْ أغلظت له بالقول فأغضبته، ولم يكن من جبروته وغيِّه إلا أنْ طعنَها بحربةٍ فماتت شهيدة[1]، وصعدت روحها إلى بارئها راضيةً مرضية وهي تشهد أنْ لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

* قال مجاهدٌ ـ رحمه الله ـ: أول شهيد كان في أولِ الإسلام أم عمار سمية طعنها أبو جهل بحربةٍ في قلبها[2].

* وكان استشهاد سمية ـ رضي الله عنها ـ في السَّنة

(١) عن أنساب الأشراف (١/١٥٨)، والسيرة الحلبية (١/٤٨٣) بتصرف يسير.

(٢) انظر البداية والنهاية (٣/٥٩).

السّابعةِ قبل الهجرة التي توافق سنة (٦١٥) من الميلاد.

* قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ : هي أول شهيدة في الإسلام[1]، رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

ابنُ سُميَّةَ:

* سميةُ، هذا الاسم وهذه الصَّحابية التي بقيتْ ذكْراها حيَّةً عطرةً بعد أنْ نالتِ الشَّهادة وفازت بمرضاةِ الله، فقد كان النَّبي الكريم ﷺ يقول لابنها عمار: «ابن سميه». ولا يخفى ما في هذه التَّسمية المباركة من تكريم لهذه الصَّحابية المباركةِ الخيِّرة الصَّابرة، وكثيراً ما كان يَرِدُ ابن سمية على لسان رسول الله ﷺ، روى سيِّدُنا عبدالله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا اختلفَ النَّاسُ كان ابنُ سميَّةَ مع الحق»[2].

* وفي موضعٍ آخر يَرِدُ اسم سمية على لسان النّبي الكريم ﷺ، والحديث يرويه عبدالله بن مسعود أيضاً حيث

---

(١) صفة الصفوة (٢/٦٠) وانظر أنساب الأشراف (١/١٥٨).

(٢) انظر قصة الحديث في سير أعلام النبلاء (١/٤١٥ و ٤١٦)، وانظر كذلك تاريخ الإسلام للذهبي (٣/٥٧٥).

يقول: سمعتُ النَّبي ﷺ يقول: «ما خُيِّرَ ابنُ سمية بين أمرين إلا اختار أيسرهما»[1].

* وفي حديث آخر يرشح بالبركةِ يرويه سيِّدنا أبو سعيد الخدري أَنَّ رسول الله ﷺ خاطبَ عماراً بقوله: «يا ابن سمية»، وذلك عند بناء مسجد رسول الله ﷺ في المدينة فقال له: «ويحك يا ابن سمية تقتُلُك الفئةُ الباغية»[2].

* وكان رسول الله ﷺ يذكر سميّة بالفضل والخير، فلما كان يوم بدر ـ وما أدراك ما يوم بدر ـ زفَّ النَّبي ﷺ بشارةً طيّبة للطَّيب المطيَّب[3] جاء فيها ذِكْرُ سميّة، وذلك لما قُتِلَ عدو الله ـ أبو جهل ـ يوم بدر، فقال النبي ﷺ لعمار: «قَتَل الله قاتلَ أمّك»[4].

* ومن الجدير بالذّكر في هذا المقام أَنْ نشيرَ إلى أَنَّ رسول الله ﷺ قد دعا لسمية وأسرتها دعاءً مباركاً، عندما جاءه عمار يشكو ما تلاقي أمّه، وما يلاقي هو ووالده من شدَّةِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/٣٨٩)، وانظر سير أعلام النبلاء (١/٤١٦).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في الفتن برقم (٢٩١٥)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند، وانظر طبقات ابن سعد (٣/١٥٢)، وتاريخ الإسلام (٣/٥٧٧).

(٣) لقب سيدنا عمار حيث كان رسول الله ﷺ يقول له: «مرحباً بالطيب المطيب»، رواه الترمذي.

(٤) الإصابة (٤/٣٢٧)، وطبقات ابن سعد.

عذاب مشركي قريش ومن قسوتهم وظلمهم، فقال له: يا رسول الله، بلغ منّا ـ أو بلغ منها ـ يريد سمية ـ العذاب كلّ مبلغ، فقال رسول الله ﷺ: «صبراً أبا اليقظان ـ كنية عمار ـ اللهمّ لا تعذّب أحداً من آل ياسر بالنّار»[1].

* * *

بشَارَتُهَا بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهمُ الجنَّة يقاتلونَ في سبيلِ الله فيقتُلون ويقتَلُون وعداً عليهِ حقاً في التَّوراة والإنجيل والقُرآن ومَنْ أوفى بعهدهِ مِنَ اللهِ فاستبشروا ببيعكمُ الذي بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ [التوبة: ١١١].

* تُعَدُّ سميّة بنتُ خُبّاط ـ رضوان الله عليها ـ في طليعة المؤمنات الصّادقات السّابقاتِ إلى الإسلام، ومنَ المسارعات إلى الوفاء بعهد الله، والصّدق على ما عاهدتِ الله عليه، فنالتِ السّبق وفازت بالبشارة العظمى ـ الجنّة ـ ونعمَتِ البُشرى، وإليك نصّ حديث البشارة، فعن سالم بن أبي الجعد عن عثمان قال رسول الله ﷺ: «صَبْراً آلَ ياسر فإنَّ موعدَكم الجنّة»[2].

---

(١) انظر الاستيعاب (٤/٣٢٥)، والسيرة الحلبية (١/٤٨٤).

(٢) انظر الحديث وتخريجه في سير أعلام النبلاء (١/٤٠٩ و ٤١٠).

* وذكر الإمام نور الدّين الهيثمي بشارة الأسرة الياسرية بلفظٍ قريب على النّحو التّالي: عن عثمانَ بنِ عفان قال: سمعتُ النّبي ﷺ يقول لأبي عمّار وأمِّ عمار وعمّار: «اصبروا آلَ ياسر موعدُكمُ الجنّة»[1].

* وفي الطّبقات الكبرىٰ يذكر ابن سعد بشارة سمية وآل عمار بالجنّة، فروى أنَّ النّبيَ ﷺ مَرَّ بآل عمار وهم يُعذبون فقال: «أبشروا آل عمار فإنَّ موعدكم الجنة»[2].

* وبعد، فهذه هي الصّحابية الصّابرة سميّة بنتُ خبّاط ـ رضي الله عنها ـ، فقد سجّلها التّاريخ وسجّل جهادها وثباتها على الحقِّ، فكانت في طليعة الأوائلِ، وقد امتدح ابنُ عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ سمية وذكر ثباتها وصبرها فقال: كانت سمية ممَن عُذِّبتْ في الله وصبرت على الأذى في ذات الله، وكانت من المبايعات الخيرات الفاضلات رحمها الله[3].

* رضي الله عن سميّة أمِّ عمار، أول شهيدة في الإسلام وأمّ أول مَنْ بنىٰ مسجداً يُصلىٰ فيه[4]، وسلامٌ على

(١) مجمع الزوائد (٢٩٣/٩).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٢٤٩/٣)، ومجمع الزوائد (٢٩٣/٩) وتاريخ الإسلام للذهبي (٥٧٢/٣).

(٣) الاستيعاب (٣٢٤/٤).

(٤) قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: إن عماراً أول من بنى مسجداً يصلى فيه. انظر سير أعلام النبلاء (٤١١/١)، وانظر المجتبى لابن الجوزي (ص ١٣٧).

الأسرةِ الياسرية، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعَم عُقبى الدّارِ، ومع وداع سيرة الصَّحابية الخيّرة سمية، نعطِّر الأسماءَ بقوله تعالى: ﴿ إنَّ المتقين في جنَّات ونَهَرٍ * في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مقتدر ﴾ [القمر: ٥٤ و٥٥].

* * *

كَبشَةُ بنتُ رافع
رضي الله عنها

«يا أمّ سَعد أبْشِري وبَشّري أهليهم أنّ قتلاهُم
قد تَرافقُوا في الجنّةِ جميعاً وقَد شُفِّعُوا في أهلِيهم»

حديث شريف

«كلُّ باكيةٍ تكْذِبُ إلا أمّ سَعْد»

حديث شريف

كَبْشَةُ بنتُ رافع الأنصارية
رضي الله عنها

أمُّ الأبطال:

* صاحبةُ هذه السِّيرة العطرة، واحدةٌ مِنَ المسلمات المجاهدات اللاتي رافقن الرِّسالة النَّبوية الشَّريفة، منذ أنْ أشرقت أنوارها في المدينة المنورة.

* وهذه الصَّحابية الجليلة قامتْ بخدماتٍ عظيمة، وأدَّتْ واجبات مباركة نحو الإسلام والمسلمين، ففي بيتها ترعرعت نواةُ الإسلام، ومن ثنايا دارها فاحت روائح الطِّيب في المدينة المنورة كلها، فانتشر فيها الإسلام، فكانت بركة وخيراً على الدُّنيا كلِّها.

* وضيفةُ هذه الصَّفحات مِنَ النِّساء الفاضلات اللاتي قدَّمن الخيرَ في جميع المجالات، وهي واحدة ممَّنْ شهد لها رسول الله ﷺ بالصِّدق، ودعا لها بالبركة والأجر.

* نعم، ففي مناخ الإيمان العَطِر، نشأت هذه الصَّحابية ونهلت من معين الإسلام الصَّافي، فأعطتِ الكثيرَ، وكانت أمّاً لشهيدين عظيمين، وبطلين مباركين مِنْ أبطال الإسلام.

* فهي أمُّ مَنْ اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموته.

* وأمُّ مَنْ حكم بحكم الله من فـوقِ سبعة أرقعـة ـ سماوات ـ.

* أتريدُ مزيداً عن كرامة هذه الصَّحابية؟.

* فابنها حارسُ رسول الله ﷺ في يوم بدر، وحامل راية الأنصـار أيضاً، وواحـدٌ مِنْ مجلس شـورى الـرَّسـول ﷺ يومذاك.

* وابنها هذا الصِّديق الثَّاني بعد سيِّدنا أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه.

* ثم هو خليفةُ رسول الله على المدينة في غزوة بواط.

* لا شكَّ ـ عزيزي القارىء ـ أنَّك في شوق لمعرفةِ هذه الصَّحابية الكبيرة؛ إنَّها إحدىٰ نساء الأنصار المباركات وهي: كبشة بنتُ رافع بن معاوية بن عبيد بن الأبجر الأنصـارية الخدرية أم سعد بـن معاذ الأشهلي(١).

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/٣٧)، والاستيعاب (٤/٣٨٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٢٣٠)، وانظر كذلك الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (ص ١٢٩).

* كانت زوجة لمعاذ بن النّعمان من بني عبد الأشهل، وقد ولدت له سعد بن معاذ وعمرو بن معاذ وإياساً وأوساً وعقرب وأمّ حزام.

* أسلمت كبشة وبايعت رسول الله ﷺ، وكان لها كبيرُ الأثر في تاريخ نساء الإسلام، وقد أثْرتِ التّاريخ بمواقفَ رائعةٍ جعلتها من الأوائل في عالم نساء الصّحابة، فما أن سطعت شمس الهداية، وأشرقت المدينة بنور الإسلام، حتى سارعت أم سعد لتساهم بدورها في نصرة الإسلام بكل ما تستطيع إليه من سبيل.

* * *

إسلامُها:

* ها هي المدينة تستضيف شاباً وسيماً من مكةَ هو مُصعبُ بن عمير ـ رضي الله عنه ـ، سفير رسولِ الله ﷺ إلى المدينة، ليعلِّمَ أهلها القرآن، وليفقههم في أمور الدِّين، وبدأ مُصعب ـ رضي الله عنه ـ يقوم بسفارته أحسن قيام، وبدأ الإسلام يفشو في دور الأنصار حتىٰ وصلت دعوة الإسلام إلى دار بني عبد الأشهل، وأسلم سيّدا الأوس أُسَيد بن الحضير وسعد بن معاذ[1]، ولقصة إسلامهما حادثة طريفة رُويت في

---

(١) انظر سيرة سيدنا سعد بن معاذ في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» =

كُتُب التّراجم والسِّير[1]، وعندما أسلم سيّد الأوسِ سعد بن معاذ وقف أمام قومه بني عبد الأشهل وقال لهم:

يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟.

قالوا: سيُّدنا وأفضلُنا.

قال: فإنَّ كلامَ رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة[2].

* وسارعت أمُّ سعد إلىٰ إعلان إسلامها، وسعدت بنعمةِ الإيمان سعادةً عظيمة، بل ازدادت سعادة عندما أضحتْ دارُهَا مقرّاً ومكاناً لسفير رسول الله ﷺ، ومنها انبعثت نسماتُ الإيمان تعطر أرجاء المدينة والدّنيا كلّها.

* وذكر ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ أنَّ أول دار أسلمت من دور الأنصار دار بني عبد الأشهل[3]. فأكْرِمْ بهذه الدّار مِنْ دار!

الجزء الأول. طبعة دار ابن كثير.

(١) انظر مثلاً: البداية والنهاية (٣/١٥٢ و١٥٣)، والاستبصار (ص ٢٠٦ و٢٠٧).

(٢) انظر في هذا البداية والنهاية (٣/١٥٣)، وانظر السيرة الحلبية (٢/١٧١).

(٣) انظر صفة الصفوة (١/٤٥٥).

* ومنذ ذلك اليوم المبارك أضحت أمُّ سعد واحدةً مِنْ أعلام النّساء المسلمات اللائي تركن لَمَسَاتٍ بارزة في التّاريخ.

* ومن الجدير بالذّكر في هذا المقام أنَّ أختي أمّ سعد بن معاذ، قد أسلمتا وبايعتا رسول الله ﷺ وهما: الفريعةُ أو الفارعةُ بنت رافع، وسعاد بنت رافع وهي أمّ أسعد بن زرارة أحد النُّقباء الأخيار وهو ابن خالة سعد بن معاذ رضي الله عنهم جميعاً.

* * *

الفرحَةُ الكُبرى:

* ها هي المدينة تتلقّى الإسلام والدّعوة المحمدية بقلوب متفتّحة للإيمان، ونفوس راغبة في الخير، وها هم أهلُها مِنَ الأوس والخزرج يستقبلون رسول الله ﷺ في ديارهم الطّيبة حيث المنعة والقوة والثّروة، وكانت أمُّ سعد بن معاذ من أوائل النّساء اللاتي خرجن لاستقبال النّبي الكريم ﷺ.

* روىٰ سيّدنا أنس بن مالك حُسْنَ استقبالِ الأنصار للنّبي الكريم فقال: رأىٰ النّبي ﷺ النّساء والصّبيان مقبلين،

فقام النَّبي ﷺ مُمْثِلاً فقال: «اللهم أنتم مِنْ أحبِّ الناس إليّ» قالها ثلاث مرات[1].

* وكم تمنّت أمُّ سعد لو ينزلُ النّبي الكريم في دارها كما نزل سفيره، ولكنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قد اختار للنّبي دار بني مالك بن النّجار، وقد خصَّ رسولُ اللهِ ﷺ بني الأشهل والأنصار كلهم بالخير والبركة فقال:

«خيرُ دور الأنصار بنو النّجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير»[2].

* وبدأ الخيرُ يفيض من النِّساء الأنصاريات، وكانت أمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ مِنَ السَّابقات في مضمار الخير، فقد ذكر ابن سعد منقبة رائعة لأمِّ سعد فقال: أولُ مَنْ بايع النَّبي ﷺ أمُّ سعد بن معاذ كبشة بنت رافع بن عبيد، وأمُّ عامر بنت يزيد بن السَّكن، وحواء بنت يزيد بن السَّكن[3].....

* وهكذا فقد سجَّل التَّاريخ مكرمة السَّبْقِ إلىٰ المبايعة لرسول الله وكانت أمُّ سعد الأولىٰ في هذا المجال.

* * *

(١) انظر البداية والنهاية (٣/٢٠٠). «ممثلاً»: مَثُل الرجل مثولاً: إذا انتصب قائماً.

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم، وانظر البداية والنهاية (٣/٢٠٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/١٢).

الأم المؤمنة الخيرة:

* إنَّ شمائلَ هذه الصَّحابية الجليلة، لا يمكن أنْ تُحْصَر في بضع صفحات، ولكنا نستطيع أنْ نقتطفَ بعض المكارم والفضائل التي كانت تتحلّىٰ بها، كالشَّجاعة، والصِّدق والخير وحفْظِ الجوار، وكانت أمُّ سعد ـ رضوان الله عليها ـ بالإضافة إلىٰ تلك الصِّفات المباركة؛ ذات مواقف إيمانية تشير إلى مكانة النَّبي الكريم في نفسها.

* وقد سجّلتْ لها كُتُب التَّراجم والسِّير بعض الوقفات الإيمانية الفيّاضة بالشّجاعة والصّبر، والدّفاع عن النّبي الكريم، وتقديم الأبناء شهداء في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ.

* ففي غزوة بدر، خرج ولداها سعد بن معاذ، وأخوه عمرو بن معاذ ـ رضي الله عنهما ـ، وجاهدا في الله حقَّ جهاده، وأبلىٰ كل واحد منهما بلاءً حسناً، وعادا مع المسلمين إلىٰ المدينة يحملون بشائر النَّصر، وفرحتِ الأمُ المؤمنة بنصرِ الله.

* أمَّا في غزوة أحد، فقد خرجت أمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ مع مَنْ خرجِ من النِّساء ينظرنَ إلىٰ سلامةِ رسول الله ﷺ بعد أنْ وردتِ الأخبار إلى المدينة باستشهاد عدد من المسلمين، وكان مِنْ بين الشّهداء ابنها عمرو بن معاذ[1]،

---

(١) انظر أنساب الأشراف (١/ ٣٢٨).

ولكنَّ الأمَّ الخيرةَ كانت ترجو سلامة رسول الله ﷺ، وأقبلتْ مسرعة نحو أرض المعركة، ولما رأت رسول الله سالماً حمدت الله وقالت: أما إذْ رأيتُك سالماً فقد أشوتِ ـ هانت ـ المصيبة. فعزَّاها رسول الله ﷺ بابنها عمرو.

* وكان عمرو بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ يجالدُ في صفوف المشركين حتى لقيه ضرار بن الخطاب[1] ـ وكان يومذاك ما يزال على شركه ـ فقتله.

* ومن الجدير بالذِّكر أنَّه قد استشهد من بني عبد الأشهل اثنا عشر رجلاً، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فحظوا برضوانه ونعيمه، كما كان فيهم ثلاثون جريحاً.

* وأقبل رسولُ الله ﷺ حتى طلع على بني عبد الأشهل، وكانوا يبكون على قتلاهم، فقال ﷺ: «لكنَّ حمزةَ لا بواكي له»، ولما سمع سيِّدنا سعد بن معاذ مقالة رسول الله عن عمِّه حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، مضى إلى بيته ثم

(١) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي الفهري، كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجودين، حتى قالوا: ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم، وهو أحد الأربعة الذين وثبوا الخندق. كان ضرار بن الخطاب من مسلمة الفتح، وقال ضرار يوماً لسيدنا أبي بكر الصديق: لقريش خيراً منكم أدخلناهم الجنة وأوردتموهم النار. ولضرار أخبار لطيفة وجميلة، وقد ذكر أنه قُتِل باليمامة شهيداً ـ رضي الله عنه ـ. عن الاستيعاب والإصابة بتصرف.

رجع إلى نسائه وساقهنَّ إلى بيتِ رسول الله ﷺ ليبكين حمزة، ولم تبقَ امرأةٌ إلا جاء بها إلى بيت النّبي الكريم، وكانت أمُّه كبشة مع اللواتي أتينَ يبكين عم رسول الله طلباً لمرضاة الله ومرضاةِ رسوله. ولما سمع عليه الصَّلاة والسَّلام البكاء قال: «ما هذا»؟.

فقيل له: نساء الأنصار يبكين على حمزةَ.

وهنا قال رسول الله ﷺ: **«رضي الله عنكنَّ وعَنْ أولادكن»**.

* وأمر النِّساء أنْ يرجعن إلىٰ المنازل، وكان سرور أمِّ سعد عظيماً بقَدِر ما كان حزنُها عظيماً عندما سمعت رضاء رسول الله عليها وعلى النّساء اللائي شاركْنَها البكاء.

* وتروي لنا أمّ سعد نفسها خبر عودة النّساء بعد أنْ أمرهن رسولُ الله بذلك فقالت: فرجعنا إلىٰ بيوتنا بعد ليل، معنا رجالنا فما بكتْ منا امرأة قطّ إلا بدأت بحمزةَ إلى يومنا هذا[1].

* أكرمْ بها، وأعظمْ بموقفها ومواقف نساء الأنصار اللاتي دعا لهن رسول الله ﷺ بالرّحمة والخير فقال: **«ارجعنَ رحمكنَ الله، لقد واسيتُن معي، رحم الله الأنصار؛ فإنَّ المواساةَ فيهم كما علمتُ قديمة»**.

* * *

---

(١) عن المغازي للواقدي (١/٣١٤ و٣١٥ و٣١٦) بتصرف يسير.

الصَّابرةُ الصَّادقَةُ:

* هذه الصَّحابيةُ الجليلة، حصلتْ على شهادة عالية في الصِّدقِ موقَّعة مِنْ رسول الله ﷺ، وهذه الشَّهادة ذات الرَّحيق المختوم قد رفعتْها مكاناً علياً في مقام الصَّبر والجهاد، ولكنْ كيف حظيت أم سعد بهذه الشَّهادة الفريدة؟ في السَّطور التَّالية نتعرف نبأ ذلك.

* ذكر الإمام شمس الدِّين الذَّهبي ـ رحمه الله ـ في كتابه النَّفيس «تاريخ الإسلام»، وذكر البيهقي كذلك في كتابه المبارك «دلائل النَّبوة» أنَّ عائشةَ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكانت أمُّ سعد بن معاذ معها في الحصن، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق، قد رفعوا الذَّراري والنِّساء في الحصون مخافة العدو عليهم، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فمرَّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلَّصة ـ قصيرة ـ قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربةٌ يرفل ـ يتبختر ـ بها، وهو يرتجز بيتاً من الشِّعر لحَمَلِ بنِ سعدانة الكلبي ويقول:

لبِّثْ قليلاً يشهدِ الهيجا حَمَلْ
لا بأس بالموتِ إذا حانَ الأجَلْ

فقالت أمُّ سعد: الحقْ يا بني فقد والله أخرت. وقد

أرادت ـ رضي الله عنها ـ أنْ لا تفوته لحظةً دون أنْ يحظىٰ بمعية رسولِ الله ﷺ.

* فقالت عائشةُ ـ رضوان الله عليها ـ: يا أمَّ سعد لوددتُ أنَّ درعَ سعد كانت أسبغ ـ أكمل ـ مما هي. فرُميَ سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ بسَهْم قطع منه الأكحل[1]، رماه به حِبّانُ بن العرِقَة، فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العرقة.

فقال له سعد: عرقَ اللهُ وجهك في النّار.

* ثم توجّه إلى الله ودعا قائلاً: اللهم إنْ كنتَ أبقيتَ مِنْ حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنّه لا قوم أحبّ إليّ من أنْ أجاهدهم فيك مِنْ قوم آذوا نبيك وكذّبوه وأخرجوه، اللهمّ إنْ كنتَ وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتىٰ تقرَّ عيني مِنْ بني قريظة[2].

* واستجاب الله سبحانه دعاء سيّدنا سعد ـ رضي الله عنه ـ، وضرب له رسول الله ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، وكان جرحه قد تحجّر للبرء، ونقض يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ، وعندها نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ الذي حكم بأنْ يُقتلَ الرّجال، وتُسبىٰ النِّساء

---

(١) «الأكحل»: عرق في الذراع يسمى عرق الحياة.

(٢) انظر تاريخ الإسلام (٢/٢٩١ و٢٩٢)، وسير أعلام النبلاء (١/٢٨١ و٢٨٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٤٤٠ و٤٤١) بتصرف يسير.

والذّراري، فلمّا فرغ المسلمون من قتلهم انفتق عِرْقه فمات ـ رضي الله عنه ـ.

* وهنا ظهرت الصَّحابية الجليلة أمُّ سعد للمرة الثّانية بموقفٍ جديد مشرق وضّاء، وهي تحمل شهادة الصَّدق مِنْ رسولِ الله ﷺ، فقد كانت تذرف الدَّمع سخياً على ابنها وهو يغسَّلُ، وكانت تقول:

ويل أمِّ سَعْد سَعْدا حَزَامةً وَجَدّا

* وفي هذه اللحظات شهد لها رسول الله بالصِّدق فقال: «كلُّ باكيةٍ تكذبُ إلا أمّ سعد»[1].

* وحُمِلَ سعدٌ ـ رضوان الله عليه ـ، ودُفنَ بالبقيع، ولكنَّ أمَّه ظلت تنتحبُ وتبكي، ويزفُّ إليها رسول الله بشارة مباركة عبقةً، وهذه البشارة ترويها «أسماء بنت يزيد بن السّكن» ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: لما توفي سعد بن معاذ، صاحت أمُّه، فقال النَّبي ﷺ: «ألا يرقأ دمعُك ويذهب حزنك؟ فإنَّ ابنك أول مَنْ ضحك الله إليه واهتزَّ له العرش»[2].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/٢٨٧) وانظر كذلك أسد الغابة ترجمة رقم (٧٢٣٠).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/٢٩٣)، وانظر طبقات ابن سعد (٣/٤٣٤)، ومجمع الزوائد (٩/٣٠٩).

* وصدعتِ الصَّحابيةُ الصَّابرة لقولِ رسول الله ﷺ، واحتسبت ابنها الثَّاني شهيداً عند الله سبحانه وتعالىٰ، لعلمها بمكانة الشَّهيد، وللبشرى التي بشَّرها بها النَّبي الكريم ﷺ.

* ولما فتح الله للمسلمين حصون بني قريظة وغنمها المسلمون؛ جعل الرَّسول الكريم للنِّساء اللائي حضرن القتال نصيباً منَ الغنيمة، وكان قد حضر معه في هذه الغزوة من النِّساء، صفية عمته ﷺ، وأمّ عمارة، وأمّ سليط، وأمّ العلاء، والسّميراء بنت قيس، وأمّ سعد بن معاذ رضي الله عنهن[1].

* وعاشت أمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ بعد استشهاد ابنها سعد راضية قانعة، وكانت مكان احترام الرَّسول الكريم ﷺ، ومكان احترام الصَّحابة أيضاً رضوان الله عليهم، وظلت قانتة عابدة إلىٰ أنْ لقيت ربّها ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

بشَارتُها بالجَنَّةِ:

* قال تعالىٰ في جزاء الصَّابرين المتوكلين: ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لنبوئنهم مِنَ الجنَّـةِ غُرفاً تجري مِنْ**

---

(١) انظر مغازي الواقدي (٢/٥٢٢)، وانظر كذلك السيرة الحلبية (٢/٦٦٦).

تحتِها الأنهارُ خالدين فيها نِعْمَ أجرُ العاملين * الذينَ صبروا وعلى ربِّهم يتوكلونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٨ و ٥٩].

* هذه الصَّحابية الفاضلة الطَّيبة، واحدةٌ مِنْ كرائم النِّساء اللواتي ضربن أروعَ آياتِ الصَّبر والتَّوكل في تاريخ النِّساء، وكانت مع هذا كلِّه تحرص كل الحرص علىٰ مرضاة الله ومرضاة رسوله، وتؤثر محبة رسولِ الله على كلِّ غالٍ ونفيس مِنْ مالٍ وولد، وهل هناك غاية أسمىٰ مِنْ رضاء الله ورضاء رسوله عنها؟! لذلك نالت البشرىٰ بالجنَّة لقاء هذه الصِّفات، فقد صبرت عندما استشهد ولدها عمرو وأخوه سعد ـ رضي الله عنهما ـ، وفي السُّنَّة النَّبوية المطَّهرة إشاراتٌ كثيرةٌ، ودلائل واضحة تبشِّرُ بالجنَّةِ لمَنْ صبر ابتغاء مرضاة الله، فعن سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ احتسب ثلاثة مِنْ صلبه دخل الجنَّة»، فقامتِ امرأة فقالت: أو اثنان؟ فقال: «أو اثنان» فقالت: يا ليتني قلتُ واحدة[1].

* وأمُّ سعد ـ رضي الله عنها ـ ممن احتسبت ولديها عند الله سبحانه وتعالى، والله عنده حسنُ الثَّواب.

* وقد نالت أمُّ سعد بشارة الرَّسول الكريم بالجنَّةِ في غزوة أحد، فقد جاءت تعدو نحو رسول الله ﷺ وهو على

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي والإمام أحمد.

فرسه، وسعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ آخذ بعنان فرسه، فقال له سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بها» فوقف لها، فدنت، فعزاها بابنها عمرو بن معاذ ثم قال:

«يا أمَّ سعد أبشري وبشِّري أهليهم أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّةِ جميعاً وقد شُفِّعوا في أهليهم»[1].

قالت: رضينا يا رسول الله ومَنْ يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادعُ لِمَنْ خلّفوا، فقال رسول الله ﷺ:

«اللهمَّ أذهِبْ حزنَ قلوبهم واجْبُرْ مصيبتَهم، وأحسِنْ الخلفَ على مَنْ خلّفُوا»[2].

* وهكذا نالت أمّ سعد ـ رضي الله عنها ـ البشَارة بالجنَّةِ، وشملت هذه البشارة أيضاً أمهات وأخوات وزوجات الشُّهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ببركةِ دعائه ﷺ.

* وبعد، فهذه نفحاتٌ نديةٌ من سيرة صحابية جليلة،

---

(١) كانوا اثني عشر شهيداً، وكلهم من بني عبد الأشهل، انظر أسماءهم في المغازي (٢/٣٠١) والدرر (ص ١٦٨) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/٢٠١).

(٢) انظر المغازي (٢/٣١٥ و٣١٦)، والسيرة الحلبية (٢/٥٤٥ و٥٤٦).

أرجو الله أنْ أكون قد وفَقتُ في الحديث عنها وعن سيرتها المعطار.

* رضي الله عن كبشة أمِّ سعد، الأم المؤمنة الصَّابرة الصَّادقة، ونحن في وداع أمِّ الأبطال نقرأ قوله تعالى:

﴿ إنَّ المتقينَ في جنَّات ونَهَر * في مقعَد صدقٍ عندَ مليـكٍ مقتدر ﴾ [سورة القمر: الآيتان ٥٤ و ٥٥].

* * *

(١٠)

أم المؤمنين
زينب بنت جحش
- رضي الله عنها -

أم المؤمنين
زينبُ بنت جَحْش
رضي الله عنها

«أسْرَعكُنّ لحَاقاً بي أطْوَلكُنّ يَداً»

حديث شريف

«إنّ زَينبَ بِنت جحش أوّاهَةٌ»

حديث شريف

أمُّ المؤمنينَ زَينبُ بنتُ جحش
رضي الله عنها

السَّيِّدةُ الشَّريفَةُ:

* هذه الصَّحابية الفاضلة جمعتِ الفضلَ منْ أطرافه كلِّها، وجُمعَ فيها البِّر مِنْ أطرافه أيضاً.

* فابنُ خالها أشرف خلق الله على الإطلاق، سيّدنا رسول الله ﷺ.

* وجدُّ الرَّسول الكريم وجدُّها لأمِّها عبد المطلب بن هاشم سيّد قومه.

* وخالها سيّد الشُّهداء، وأسد الرّحمن، وفارس رسول الله، سيِّدُنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* وأخوها صاحبُ أول راية عُقدت في الإسلام، وأول من دُعيَ بأمير المؤمنين وأحد الشُّهداء، لُقِّبَ بالمُجدّع، سيدنا عبدالله بن جحش[1] ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) انظر سيرة هذا الصحابي الكريم في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول.

* وأخوها أيضاً أحد شعراء الإسلام المجيدين سيّدنا أبو أحمد بن جحش.

* وأختُها إحدى السّابقات إلى الإسلام حمنة بنت جحش.

* وأمُّها عمّة رسول الله ﷺ التي أطعمها النّبي أربعين وسقاً من تمر خيبر أميمة بنت عبد المطلب.

* وهي ـ رضي الله عنها ـ الوحيدةُ التي زُوِّجت من فوق سبع سماوات.

* عُرفت هذه المرأةُ المباركة بالسَّبق إلى الإسلام والهجرة والجهاد والصَّبر والزُّهد، افتتح أبو نعيم الأصبهاني ترجمتها في حليته بقوله: الخاشعةُ الراضيةُ، الأوّاهة الدَّاعية[1].

* أمّا الإمام النَّووي فيقدِّمُ بطاقتها فيقول: زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية تكنى أمّ الحكم، وأمُّها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ[2].

* وُلدت زينبُ قبل البعثة بـ(٣٣) سنة، وهذه السَّنة توافق (٥٩٠) من الميلاد، وكان مولدُها في مكةَ المكرمة في

---

(١) الحلية (٢/٥١).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٤).

بني أسد ـ أسد خزيمة ـ ونشأت تنعم بالشَّرف والجمال وتفخر بالحسب والنَّسب، ولشدة اعتدادها بنفسها سُمِعت ذات مرة تقول: أنا سيِّدة أبناء عبد شمس[1].

* * *

من الرَّعيْلِ الأولِ:

* بدأت نسماتُ الإسلام تفوحُ باريجها العطر في أمِّ القرى، وبدأ أصحاب العقول الواعية يتقبّلون هذه الدَّعوة بقلوبٍ صافية متعطّشة للتَّخلص من براثن الجاهلية، وكان عبدُالله بن جحش منَ الذين سمعوا دعوة الحقِّ فـأعلنَ إسلامه، وآمن بما يدعو إليه ابن خاله محمّد ﷺ، وسرعان ما بادرت أسرته إلى إعلان إسلامها، وسارعت أخته زينب إلى الإيمان بالله، فقد كانت تحمل نفساً صافيةً نقيةً، وكانت تتوق إلى التَّخلص من عادات الجاهلية العفنة العمياء، فاتجهت إلى الله بقلبها، وأخلصت في إسلامها إخلاصاً جعلها من سادة نساء الدُّنيا في الورع والتَّقوى والجود والمعروف ـ رضوان الله عليها ـ.

* * *

(١) عن السمط الثمين للطبري (ص ١٠٧).

زينبُ في رَكْبِ المُهَاجرينَ:

* راحتْ زينب تتزوّدُ مِنْ معين القرآن ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، واتجهت إلى ربِّها بقلبٍ يفيض بصدق الإيمان، ونفس تغمرها رحمة الإسلام، وكانت ترىٰ المسلمين يزدادون في مكةَ يوماً بعد يوم، لكنَّ قريشاً كانت تصدّهم عن سبيل الله بجميع الوسائل، وتقف سداً منيعاً أمام كلّ مَنْ آمن بالله ورسوله.

* وآلَمَ رؤساء قريش انتشار الإسلام في مكةَ، وأقضَّ مضاجع المشركين انتقال الإسلام إلىٰ المدينة وانتشاره فيها بسرعة، عند ذلك أوغلوا في إيذاء المسلمين وضيَّقوا عليهم حياتهم، وأجرموا بحقِّهم، وكان الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يشكون إلى النَّبي الكريم ﷺ ما يجدونه مِنْ عنَتِ المشركين، فيثبِّتهم ويصبرهم ويعدهم الفرج والمخرج من هذا العذاب.

* ولما أذنَ الله بالهجرة إلى المدينة، هاجر بنو جحش بقيادة سيِّدنا عبدالله بن جحش ومعه أخوه أبو أحمد عبد بن جحش، وكان أبو أحمد هذا شاعراً ضريرَ البصر، وكان معهما محمّد بن عبدالله بن جحش، وهاجر معهم نساؤهم: زينب بنت جحش بطلة ترجمتنا اليوم، وحمنة بنت جحش

ـ زوج مصعب ابن عمير ـ وأمّ حبيب بنت جحش ـ زوج عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهن.

* انطلق بنو جحش رجالاً ونساءً إلى المدينة، فقد كانوا جميعاً أهلَ إسلام، وغُلِّقت دارهم بسبب الهجرة، حتى تركت هذه الهجرة أثراً في نفوس رجالات قريش، واستولى أبو سفيان بن حرب على دار بني جحش وتملّكها. ولما ذَكَرَ عبدالله بن جحش ذلك للرسول ﷺ قال له: «ألا ترضى يا عبدالله أنْ يعطيَكَ الله بها داراً في الجنة خيراً منها»؟ قال عبدالله: بلى، قال: «فذلك لك»[1].

* ومن الطُّريف أنَّ أبا أحمد بن جحش، قد سجَّل هجرة بني جحش في قصيدة له يصوِّر فيها عوامل الهجرة، وأذى قريش، ويذكر إيمان قومه برسول الله ﷺ واتباعهم طريق الهدى والصواب[1].

* * *

رَضيتُهُ لَكِ:

* قال تعالى: ﴿ إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتْقاكم ﴾ [الحجرات: آية ١٣].

(١) انظر في هذا السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٧٢)، والبداية والنهاية (٤/١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢).

* لما جاء الإسلامُ الحنيف كان مِنْ مقاصده أنْ يزيلَ الفوارق بين النَّاس، تلك الفوارقُ التي تقوم على العصبية وحمية الجاهلية، فلا فضل لأحد على أحدٍ إلا بالتَّقوى، فالتَّقوى ميزان الإسلام، وأراد النَّبي الكريم أنْ يحققَ هذا الميزان، ويحقق المساواة بين النَّاس عمليّاً، وذلك بتزويج زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ وهي قريبته، لمولاه سيِّدنا زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ، حتى تسقط تلك الفوارق الطبقية الواهية، وعرض عليه الصَّلاة والسَّلام ذلك على زينبَ وخطبها لزيد بن حارثة، ولكنَّ زينبَ دارتْ بذهنها خواطر مضطربة، وتساؤلات متضاربة، كيف ستقبلُ هـذا الزَّواج غير المتكافىء من أحد الموالي وهي السَّيدة الشَّريفة ذات الحسب والنَّسب والشَّرف؟! وقالت للنَّبي الكريم ﷺ: يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أيِّم[1] قريش، قال ﷺ: «فإنِّي قد رضيتُهُ لَكِ»[2]، ونزل قوله تعالى على رسوله الكريم ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسولهٗ أمراً أنْ يكونَ لهمُ الخيرةُ مِنْ أمرهم ومن يعصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ﴾ [الأحزاب: آية ٣٦].

* وهنا لم يَسَعْ زينب أنْ تخالَفَ أمْرَ اللهِ ورسوله،

---

(١) الأيم: من لا زوج لها بكراً أو ثيباً. انظر القاموس المحيط مادة أيم.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (١٠١/٨).

فامتثلتْ ـ رضي الله عنها ـ، وتزوّجها زيدُ بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ، والتزمت زينبُ بالمبدأ الذي لا يتفاضلُ فيه النّاس إلا بالتّقوى.

* ثم إنَّ زيداً هذا أميرٌ منْ أمراء الجهاد، وكان النّبي الكريم قد تبنّاه وهو صغيرٌ إلى أنْ صار رجلاً وأصبح يُدعى زيد بن محمد[1]، ولما نزل قوله تعالى: ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله فإنْ لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدِّين ومواليكم** ﴾ [الأحزاب: آية ٥]. عند ذلك أُلغيت عادة التّبني التي كانت متفشية في الجاهلية، وشرعَ الإسلامُ في تنظيم المجتمع وإحكام الرَّوابط الأسرية، وردّ علاقة النَّسب إلى أصولها الحقيقية.

* * *

زينَبُ وزيدٌ ـ رضي الله عنهما ـ:

* استمرتِ الحياةُ الزَّوجية بين زينب وزيد قرابة سنة، ثم بدأت جذورُ الخلاف تنشأ بينهما، وخاصة بعد أنْ أبطلَ الإسلامُ التّبني، وراحت زينب ـ رضي الله عنها ـ تترفّعُ على زيد ـ رضي الله عنه ـ، مما جعل هذا الزواج يسوء يوماً بعد يوم ويبتعد عن الصّفاء، وتزداد الغيوم الداكنة في سمائه، وهذا لحكمة يريدها الله سبحانه.

---

(١) اقرأ سيرة زيد بن حارثة في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» الجزء الأول.

* وكان زيدٌ وهو الحِبُّ ـ حِبُّ رسول الله ـ يذهب إلى النَّبي الكريم ﷺ يشكو له ما يلاقيه من زينبَ، ومن ترفّعها عليه، وكان النَّبي الكريم ﷺ يقول له: «أَمْسِكْ عليك زوجك واتَّقِ الله»، فكان عليه الصَّلاة والسَّلام ينصح زيداً بإمساكها.

* ولكنَّ حياةَ زيد وزينب لم يُكْتَب لها الصَّفاء والوفاق، وكان الجفاء هو طابع زواجهما الذي تمَّ بأمرِ الله سبحانه، لحكمة يريدها الله عزَّ وجلَّ لإبطال عادة التَّبني وما يتعلّق بهذه العادة من أحكام وتوابع في الجاهلية.

* كان سيِّدُنا زيدٌ ـ رضي الله عنه ـ يشعر بصعوبة التَّعايش مع زينب حتى عافتها نفسُه، وضجر منها، وذهب إلى رسول الله ﷺ شاكياً وطالباً الإذنَ بطلاقها، والرَّسول الكريم ﷺ يقول له: «أمسكْ عليك زوجك واتقِ الله» وهو يعلمُ تماماً أنْ لا بدّ مِنَ الطلاق، وأنَّ الله سبحانه سيأمره بالتزوّج بها بعد زيد إبطالاً لبدعة التَّبني، فقد كان جبريل عليه السّلام أخبر رسول الله ﷺ بأنَّ زينبَ ستكون مِنْ أزواجه، وسيبطل الله بزواجه منها هذه العادة الجاهلية، غير أنَّ النَّبي الكريم وجد غضاضةً علىٰ نفسه بهذا الأمر، فيصيرُ عرضة للقيل والقال وإرجاف المرجفين بأنَّ محمداً تزوج حليلة متبنّيه، فشعر عليه الصَّلاةُ والسَّلام بالخجل من هذا الأمر، وخشيَ منْ مشاغبة المنافقين واليهود، فعاتبه الله

سبحانه على هذا ونزَّهَه عن الالتفات إلىٰ المرجفين فيما أحلَّه الله له، وقد صدعَ الوحي بالسَّبب الباعثِ على زواج النَّبي الكريم ﷺ من زينبَ فقال عزَّ وجلَّ:

* ﴿ وإذْ تقولُ للذي أنعَم الله عليه[1] وأنعمتَ عليه[2] أمسكْ عليكِ زوجك واتَّقِ الله وتخفي في نفسِك ما الله مُبديه وتخشىٰ النَّاس والله أحقُّ أنْ تخشاه فلمَّا قضىٰ زيدٌ منها وطراً زَوَّجناكها لكي لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواجِ أدعيائهم إذا قضَوْا منهنَّ وطراً وكان أمرُ الله مفعولاً ﴾[3].

* وهكذا فقد تمَّ أمرُ الله سبحانه، ونفَّذ الرَّسول الكريمُ ما أمره الله به في غير حرج، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

* * *

منْ فوق سَبْع سَمَاوات:

* نالتِ السَّيدةُ زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ شرفاً عظيماً مِنَ الله سبحانه وتعالىٰ، إذْ جعلَها مِنْ أمّهات المؤمنين، وأضحت إحدىٰ زوجات النَّبي الطَّاهرات.

* روىٰ الإمامُ مسلم والإمامُ أحمد بسندهما عن سيِّدنا

---

(١) يعني بالإسلام وهو زيد.

(٢) يعني بالعتق.

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧، وانظر تفسير ابن كثير لهذه الآية.

أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما انقضت عدةُ زينب قال النبيُّ ﷺ لزيدٍ: «اذهب فاذكرها عليّ»[1] فانطلق حتىٰ أتاها وهي تُخمِّر عجينَها، قال: فلمَّا رأيتُها عظُمت في صدري حتى ما أستطيع أنْ أنظرَ إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فولَّيتُها ظهري ونَكَصْتُ علىٰ عَقِبِي وقلت: يا زينب أبْشِري أرسلني رسول الله ﷺ يذكُرُكِ، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامرَ ربي عزَّ وجلَّ، ثمَّ قامت إلى مسجدها ونزلَ القرآن وجاء رسولُ الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[2].

* وهكذا زوَّج الله سبحانه وتعالىٰ زينبَ من نبيِّه ﷺ بنصِّ كتابه بلا وليٍّ ولا شاهد، حتى كانت تفخر بذلك على أمّهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ وتقول: «زوّجكن أهاليكن وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سماوٰات»[3].

* وفي روايات أخرى كانت زينب ـ رضي الله عنها ـ تقول: «أنا أكرمكن وليّاً وأكرمكن سفيراً، زوَّجكُن أهلكن وزوَّجني الله من فوقِ سبع سماوات»[4].

---

(١) أي اخطبها لي من نفسها.

(٢) انظر صحيح الإمام مسلم في كتاب النكاح حديث رقم (١٤٢٨)، وأخرجه الإمام أحمد (٣/١٩٥)، والنسائي أيضاً (٦/٧٩) في النكاح وغيرهم.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب التوحيد باب: وكان عرشه على الماء.

(٤) انظر طبقات ابن سعد (٨/١٠٣)، والاستيعاب (٤/٣٠٧)، وأسد

* وذكر ابنُ عباس - رضي الله عنها قال: لما أُخبرتْ زينب بتزويج رسول الله ﷺ لها سجدت[1]. وفي رواية أنَّها لما بُشرت بتزويج الله نبيه إيّاها ونزول الأية في ذلك جعلت على نفسها صوم شهرين شكراً لله، وأعطتْ مَنْ بشَّرها حليّاً كان عليها[2].

* وقد روي أنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا دخل بها قال لها: «ما اسمُك»؟ قالت: برّة. فسمَّاها رسول الله ﷺ زينب[3]. وذكر ابن سعد وابن الأثير أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أطعَمَ على زينبَ خبزاً ولحماً.

* * *

وَاللهُ يقولُ الحَقَّ:

* نزل تشريعُ الله سبحانه بإبطال التَّبني، وتزوُّج النَّبي الكريم من زينبَ بأمرٍ منَ الله، وما كاد يتمُّ هذا الحدث السَّعيد حتى جعل المرجفونَ والمنافقونَ وأتباعهم يقولون: كيف ينهانا محمّد عن زوجاتِ الأبناء ويتزوّج هو زوجة ابنه زيد، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى وهو الكبير المتعال ردَّ على

= الغابة ترجمة رقم (٦٩٤٧).

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٥).

(٢) انظر أنساب الأشراف (١/٤٣٦).

(٣) رواه الإمام مسلم، وانظر أسد الغابة ترجمة رقم (٦٩٤٧).

هؤلاء المتقولين وأنزل قوله تعالى: ﴿ ما كان على النَّبي مِنْ حرجٍ فيما فرضَ اللهُ له سنَّةَ اللهِ في الذين خلَوْا مِنْ قبل وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً * الذين يبلِّغونَ رسالاتِ اللهِ ويخشونَه ولا يخشونَ أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾ [الأحزاب: ٣٨ و ٣٩].

* ثمَّ بيَّن اللهُ سبحانه وتعالى بطلان التَّبني وبطلان ما يترتَّبُ عليه من حقوقٍ وذكر أنَّ محمداً خاتم الأنبياء فقال: ﴿ ما كان محمَّد أبا أحدٍ منْ رجالكم ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتمَ النَّبيين وكانَ اللهُ بكلِ شيءٍ عليماً ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

* كما أنَّ اللهَ سبحانه قد نظَّم الأسرةَ على أساسٍ محكم صريح، وردَّ علاقة النَّسب إلى علاقات الدَّم والأبوة، وبيَّنَ سبحانه أنَّه لا يستقيم في منطق العقل أنْ يكونَ الولد دعيّاً وابناً فقال سبحانه: ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدي السَّبيل ﴾ [الأحزاب: ٤].

* * *

الحِجَابُ:

* مِنْ بركاتِ زينب أمّ المؤمنين - رضي الله عنها - ومن فضائلها نزول آية الحجاب بسببها، وذلك في صبيحةِ عرسها، وذلك أنَّه لما دخل بها النَّبي ﷺ أوْلَمَ عليها ما لم يُولم على غيرها، وكان ذلك سبباً في نزول آية الحجاب.

* رویٰ البخاري ومسلم وغيرهما قصّة نزول الحجاب وسببه، وسنوردُ رواية البخاري عن سيِّدنا أنس بن مالك، ففيها شفاء للصدور وفيها حكمةٌ وعظة، فقد رویٰ البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال:

* بُنِيَ على النَّبي ﷺ بزينبَ بنت جحش بخبز ولحم، فأُرسِلْتُ على الطَّعام داعياً، فيجيءُ قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثمَّ يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، فدعوتُ حتى ما أجدُ أحداً أدعو. فقلتُ: يا نبيّ الله ما أجِدُ أحداً أدعوه قال: «فارفعوا طعامكم» وبقيَ ثلاثـةُ رهط يتحدَّثـون في البيت، فخرج النَّبيُّ ﷺ فانطلق إلى حُجرة عائشة فقال: «السَّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله» فقالت: وعليكَ السَّلام ورحمة الله كيفَ وجدتَ أهلك بارك اللهُ لك؟ فتقرّیٰ حُجَرَ نسائه كلّهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة.

* ثم رجع النَّبي ﷺ، فإذا ثلاثةٌ مِنْ رهط في البيت يتحدَّثون، وكان النَّبيُّ ﷺ شديدَ الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري آخْبَرته أو أُخْبِر أنَّ القومَ خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفَّةِ[1] الباب داخلةً وأخرى خارجةً أرخى السِّترَ بيني وبينه وأُنزِلت آيةُ الحجاب»[2].

---

(١) الأسكفة: عتبة الباب السفلى التي يوطأ عليها.

(٢) صحيح البخاري، تفسير سورة الأحزاب (١٤٩/٦)، وصحيح

* والمراد بآيةِ الحجاب قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النَّبي إلا أنْ يُؤذن لكم إلى طعامٍ غير ناظرين إناه[1] ولكنْ إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسينَ لحديثٍ إنَّ ذلكم كان يؤذي النَّبي فيستحي منكم والله لا يستحي منَ الحقِّ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن مِنْ وراء حجاب ذلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبهن وما كانَ لكم أنْ تؤذوا رسولَ الله ولا أنْ تنكحوا أزواجَه من بعده أبداً إنَّ ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

* نعم نزلت آيةُ الحجاب تعليماً وإرشاداً للنَّاس ألا يدخلوا بيوتَ النَّبي ﷺ بغيرِ إذْن، فإذا ما دُعوا إلى طعامٍ دخلوا ثم إذا طعموا خرجوا فلا سَمَرَ ولا حديث.

* وكان نزول الحجاب مِنْ موافقاتِ سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فقد روىٰ البخاري في صحيحه عن سيِّدنا أنس قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: قلتُ: يا رسولَ الله يدخلُ عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمّهاتِ المؤمنينَ بالحجاب، فأنزلَ الله آية الحجاب[2].

* وفي الطَّبقات الكبرىٰ ذكر ابنُ سعد عن أنس قال:

= مسلم حديث رقم (١٤٢٨). وانظر تفسير الماوردي وابن كثير والقرطبي للآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

(١) إناه: أي نضجه.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير لسورة الأحزاب.

كان أول ما نزل من الحجاب مُبْتَنىٰ رسول الله ﷺ بزينبَ بنت جحش[1]، وكان ذلك سنة خمس مِنَ الهجرة، وحَجَبَ رسولُ الله ﷺ نساءه يومئذ، وكان زواج زينبَ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ بركةً على المسلمات إلى قيام السَّاعة، حيث فُرِضَ الحجاب على بنات حواء ليكون هدية الشَّرف والطَّهارة والنَّقاء[2].

* * *

مَعَ الرَّسولِ في الغَزْوِ والحَجِ:

* لما خرج رسولُ الله ﷺ إلى الطَّائفِ كان معه امرأتان مِنْ نسائه وهما: أمّ سلمة وزينب ـ رضي الله عنهما ـ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلام قد ضرب لزوجتيه قبّتين، ثم كان يصلي بين القبتين حصارَ الطّائف كلّه.

---

(١) طبقات ابن سعد (١٧٣/٨)، وانظر الفصول في سيرة الرسول (ص ٢٤٦).

(٢) حديث سيدنا أنس بن مالك ـ رضوان الله عليه ـ في البناء بأم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ في زهاء عشرة مواضع في صحيح الإمام البخاري وحده. فهو في تفسير قوله تعالى: ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي... ﴾ سورة الأحزاب (١٤٩/٦)، وفي خمسة أبواب أخرى من كتاب النكاح في الجزء السابع صفحة (٢٧ و٢٨ و ٣٠ و ٣١ و١٠٧). وفي الاستئذان آية الحجاب (٦٥/٨) ثم في (٧٥/٨). وفي كتاب التوحيد (١٥٢/٩)، وكلها بالبيان وفيها مقنع.

* وفي حجة الوداع كانت زينبُ أمّ المؤمنينَ ـ رضي الله عنها ـ مع رسول الله ﷺ، وقد قال عليه الصَّلاة والسَّلام لنسائهِ في حجة الوداع: «هذهِ ثمّ ظهور الحُصْرِ»[1].

* وكانت نساء النَّبي ﷺ يحججن كلّهن إلا سودة بنت زمعة وزينب بنت جحش قالتا: لا تحركُنا دابةٌ بعد رسول الله ﷺ[2].

* وذكر ابن سعد في الطَّبقات بسنده قال: لم تحج زينب بنت جحش بعد حجةِ رسول الله ﷺ التي حجتْها معه حتىٰ توفيت في خلافة عمرَ سنة عشرين، وكانت زينبُ ـ رضي الله عنها ـ قد عملتْ بوصيةِ رسول الله حينما قال لأزواجه: «أيكن اتقتِ الله ولم تأْتِ بفاحشةٍ مبيّنةٍ ولزمتْ ظهر حصيرها فهي زوجتي في الآخرة»[3].

* * *

---

(١) أي لا تعدن تخرجن من بيوتكن وتلزمن الحصر، والحصر جمع حصير.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/٢٠٨) والمغازي (٣/١١١٥) وأنساب الأشراف (١/٤٦٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/٢٠٨).

زينَبُ وعائشَةُ ـ رضي الله عنهما ـ:

* للصِّديقة بنت الصِّديق عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنهـا ـ شهادةٌ مبـاركةٌ في أمِّ المؤمنين زينبَ ـ رضي الله عنها ـ، وهذه الشَّهادة من نوعٍ خاص، فهي تحملُ في طياتها الصِّدقَ والإعجابَ، وتشهد لزينبَ بالطِّيب والطُّهر والعفة والخلق الكريم، فقد رُوِي عن أمِّ المؤمنينَ عـائشة بنت الصِّديق ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت:

* كانت زينبُ بنت جحش تُسَاميني[1] في المنزلةِ عند رسول الله ﷺ، ما رأيتُ امرأةً خيراً في الدِّين مِنْ زينبَ وأتقىٰ لله، وأصدقَ حديثاً، وأوصلَ للرحم، وأعظمَ صدقةً ـ رضي الله عنها[2] ـ.

* وروىٰ الإمامُ أحمد بسنده عن عروة بنِ الزُّبير عن عائشة شهادة لها بزينب حيث قالت عائشة: ولم أَرَ امرأةً خيراً منها وأكثر صدقةً، وأوصل للرحم، وأبذل لنفسِها في كلِّ شيء يتقرب به إلى اللهِ عزَّ وجلَّ من زينبَ.

* وشهادة عائشة لزينبَ ـ رضي الله عنهما ـ بالخير إنَّما مردُّ ذلك لشهادة زينب مِنْ قبلُ في عائشةَ، وذلك عند حديث

---

(١) تساميني: تساويني وتضاهيني.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/٢١٣ و ٢١٤).

الإفك فقد أدلتْ زينب شهادةً مباركةً طاهرةً في عائشة، وروى هذا الخبر البخاري في صحيحه من حديث عائشة الطّويل في حديث الإفك، وسنقتطفُ منه فقرةً كاشفةً، فقال:

«... ... ... قالت عائشةُ: وكانَ رسول الله ﷺ يسألُ زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمتُ إلاّ خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمَها اللهُ بالورعِ، وطفقتْ أختُها حمنة تحارب لها، فهلكتْ فيمن هلكَ مِنْ أصحاب الإفك»[1].

* رضي الله عن أمّ المؤمنين زينبَ التي كانت تمقُتُ الفتنة، وتسأل الله أنْ يبعدَها عنِ المفسدينَ والحاسدينَ، وكانت تستطيع أنْ تدسَّ في هذه النُّهزةِ ما تشاء، ولكنَّها ما قالت إلا خيراً ولا شهدت إلا صدقاً وبرّاً وعدلاً.

* وأودُّ هنا ـ عزيزي القارىء ـ أنْ أشيرَ إشارةً هامّةً إلى أنَّ الرواياتِ في الصَّحيحين وغيرهما قد بيَّنت أنَّ الذينَ خاضوا في هذا الحديث الآثم هم: عبدُالله بن أبي بن سلول رأس النفاق، وحمنة بنت جحش أخت زينب، ومسْطَح بن

---

(١) انظر تفسير سورة النور في صحيح البخاري، وانظر تفسير ابن كثير للسورة نفسها، وأسباب النزول للواحدي.

أثاثه، وحسان بن ثابت، وأنَّ الذي تولَّىٰ معظم الحديث والإرجاف به زعيم المنافقين ابن أبيّ وتلاهُ الباقون، وقد تابَ هؤلاء توبةً نصوحاً ـ ما عدا ابن أبي ـ وقد اعتذر حسّان بن ثابت عمّا كان، وامتدح الصّديقة بنت الصّديق المبرأة مِنْ فوق سبع سماوات بما هي له أهل فقال:

حَصَانٌ رزان ما تُزَنُّ بريبةٍ
وتصبح غرثىٰ من لحوم الغَوافل
عقيلة حيٍّ من لؤي بن غالب
كرام المَساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيَّب الله خِيمها
وطهَّرها من كل سُوء وباطل[٢]

* * *

مَكَانتُها وفَضْلُهَا ـ رضي الله عنها ـ:

* لزينبَ ـ رضي الله عنها ـ مكانةٌ عاليةٌ عند رسول الله ﷺ، فقد كانتْ أثيرةً لديه، وذكر ابن سعد أَنَّ آثرَ نساءِ النَّبي ﷺ عنده عائشة وأمّ سلمة وزينب[١]، أضفْ إلى ذلك أنَّ رسولَ الله كان يُصلي في بيت زينب وهذه منقبةٌ عظيمةٌ لها وبركةٌ مِنْ بركاتها ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

---

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت طبعة دار المعارف.

* وهذه حادثةٌ تشير إلى مكانة زينبَ وحظوتها عند رسول الله ﷺ، وذلك أنَّ النَّبي الكريم كان إذا صلىٰ العصر دار على نسائه يلاطفُهن ويؤانسهن بالمحادثة، وربما يطيل المكْث عند بعضهن، فتأخذ الغَيرة بنفوس بعضهن، فدخل ذات يوم على أمِّ المؤمنين زينبَ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ، فمكثَ عندها وشرب عَسَلاً، فأخذتِ الغَيرةُ بنفْسِ عائشةَ وحفصةَ ـ رضي الله عنهما ـ، ولنتركْ أمّ المؤمنين عائشة تروي لنا نبأ هذه الحادثة، فقد أخرجَ الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت:

«كان رسولُ الله ﷺ يشربُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش ويمكثُ عندها، فواطيتُ أنا وحفصة عن أيّتنا دخلَ عليها فلتقلْ له أكلتَ مغافير[1]، إنّي أجدُ منك ريح مغافير، قال: «لا ولكنّي كنتُ أشربُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعذْ وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً»[2]. فنزل قوله تعالى: ﴿ يا أيّها النَّبي لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لك تبتغي مرضاةَ أزواجِكَ واللهُ غفورٌ رحيم ﴾ [التَّحريم: ١]. فكفَّرَ رسولُ الله ﷺ عن يمينه، وتابَ نساؤه إلى الله ورسوله.

---

(١) الرائحة الكريهة.

(٢) انظر صحيح البخاري تفسير سورة التحريم، وانظر صحيح الإمام مسلم حديث رقم (١٤٧٤)، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/٢١٤)، وتفسير القرطبي لأول سورة التحريم.

* ومن فضلِ زينبَ ـ رضي الله عنها ـ ما شهد به رسول الله ﷺ لها بالخشوع، وشهادة النَّبي الكريم هذه رفعت زينب مكاناً علياً في مقَامِ العبادة، روىٰ عبدالله بن شداد أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّ زينبَ بنت جحش أوَّاهةٌ» قيل: يا رسول الله ما الأوَّاهة؟ قال: «الخاشعةُ المتضرعةُ» و﴿ إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ منيب ﴾ [هود: ٧٥][1].

* ولهذا فقد كانت زينبُ ـ رضوان الله عليها ـ تعرِفُ مكانتَها وحظوتَها عند النَّبي الكريم ﷺ، فكانت تفتخرُ علىٰ نسائه بثلاث خصال، فعن الشَّعبي ـ رحمه الله ـ قال: كانت زينب تقول للنَّبي ﷺ: إنِّي لأدلُّ عليك بثلاثٍ ما مِنْ نسائك امرأة تدلُّ بهنَّ، إنَّ جدِّي وجدُّك واحد، وإنِّي أنكحنيكَ الله عزَّ وجلَّ منَ السَّماء، وإنَّ السَّفير جبريل عليه السَّلام[2].

* وفي موضعِ الفخر الذي يُحْمَدُ، كانت زينبُ ـ رضوان الله عليها ـ تعتزُّ بشرفِ القرابة من رسول الله ﷺ، وتباهي أزواجه بأنَّ الله هو الذي زوَّجها فكانت تقول لهن: «أنا أكرمكن ولياً وأكرمكن سفيراً، زوّجكن أهلكن وزوَّجني الله من فوق سبعِ سماوات».

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢١٧) والاستيعاب (٤/٣٩) وعيون الأثر (٢/٣٨٣).

(٢) انظر البداية والنهاية (٤/١٤٦)، وأنساب الأشراف (١/٤٣٥).

* وهذه أمُّ المؤمنينَ أمّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ تشيرُ إلى مكانة ضرّتها زينب عند رسول الله ﷺ فتقول: كانت زينبُ لرسولِ الله ﷺ معجبة، وكان يستكثرُ منها، وكانتِ امرأةً صالحةً صوّامةً قوّامة[1].

* * *

الثَّنَاءُ عليهَا:

* كانت أمُّ المؤمنينَ زينب ـ رضي الله عنها ـ قد جَمَعت صفات الخير كلّها مِنْ دِينٍ وخيرٍ وكرم وما شابه ذلك، ولهذا فقد انتزعت الثّناء من ضرائرها، فهذه أمُّ المؤمنين عائشة تقول عندما بلغها نعيُ زينبَ: لقد ذهبتْ حميدةً متعبّدةً، مَفْزَعَ اليتامى والأرامل.

* وفي موضعٍ آخر ذُكرتْ زينبُ أمامَ عائشة ففاضت عليها بالثّناء وقالت: يرحم الله زينب بنت جحش، لقد نالت في هذه الدُّنيا الشّرفَ الذي لا يبلغه شرف، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ زوَّجَها نبيَّه ﷺ في الدُّنيا ونطَقَ به القرآن[2].

* وشاركت أمُّ المؤمنينَ أمُّ سلمة بالثّناء عليها بما هي أهل لذلك وامتدحتْ تقواها وعبادتها فقالت: كانت امرأة صالحة صوّامة قوّامة[3].

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٥).

* وقد أثنىٰ العظماء والعلماء والمؤرخون العدول علىٰ أمّ المؤمنين زينب ـ رضي الله عنها ـ، فالإمام الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ يقول عنها: كانت دَيِّنة كثيرةَ البرِّ والصَّدقةِ[1]. وفي مكان آخر يثني عليها الذّهبي أيضاً بقوله: كانت مِنْ سادة النِّساء دِيناً وورعاً وجُوداً ومعروفاً ـ رضي الله عنها[2] ـ.

* وفي تاريخه ذكرها ابنُ كثير وأثنى عليها ثناءً عطراً فقال: كانت زينبُ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ مِنَ المهاجرات الأُول، وكانت كثيرة الخيرِ والصَّدقة[3].

* ونقل الذَّهبي عن الواقدي هذا الثَّناء الذي يشهد بفضل أمّ المؤمنين زينب فيقول: وكانت امرأة صالحةً صوّامة قوّامة صَناعاً تتصدقُ بذلك كلّه على المساكين.

* * *

مِنْ كرامَاتِها وزُهدِهَا ـ رضي الله عنها ـ:

* لم تكن أمُّ المؤمنينَ زينب ـ رضي الله عنها ـ تحفلُ بالمال أو بشيء من زُخرف الدُّنيا، بل كانت تعملُ بيدها، فكانت تدبغُ وتخرزُ وتبيعُ ما تصنعه، وتتصدقُ به في سبيل

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (٣/٢١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٢).

(٣) انظر البداية والنهاية (٤/١٤٨).

الله عزَّ وجلَّ، ومما يشيرُ إلى كرامتِها عند الله واستجابة دعائها ويشيرُ أيضاً إلى زهدها في المال مهما كَثُرَ ما روتْهُ شاهدة عيانٍ عن ذلك، لنستمعْ من برزةَ بنتِ رافع تحدثُنا عن هذا فتقول:

لمَّا خرجَ العطاءُ، أرسلَ عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ زينبَ بنتِ جحش ـ رضي الله عنها ـ بالذي لها، فلمَّا أُدخلَ عليها قالت: غفرَ الله لعمرَ، غيري مِنْ أخواتي كان أقوىٰ على قسم هذا مني. قالوا: هذا كلُّه لكِ، قالتْ: سبحان الله! واستترتْ منه بثوب وقالت: صبُّوه واطرحوا عليه ثوباً، ثمّ قالت لي: أدخِلي يَدكِ فاقبضي منه قبضةً فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان ـ من أهل رحمها وأيتامها ـ حتى بقيتْ بقية تحتَ الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أمّ المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثوب فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً. ثم رفعتْ يدها إلى السَّماء فقالت: اللهم لا يدركُني عطاءٌ لعمرَ بعد عامي هذا. قال: فماتت[1].

وروى ابن سعد أنَّه لما حُمِلَ إلى زينب المال جعلتْ تقول: اللهم لا يدركني قابل هذا المال فإنَّه فتنةٌ، ثم قسمته في أهل

---

(١) انظر في هذا طبقات ابن سعد (٨/١٠٩ و ١١٠)، وصفة الصفوة (٢/٤٨ و ٤٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/٢١٢)، وفتوح البلدان للبلاذري (ص ٥٥٥).

رحمها وفي أهلِ الحاجة حتى أتتْ عليه، فبلغَ ذلك عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: هذه امرأةٌ يُرادُ بها خير، فوقفَ على بابها وأرسلَ بالسّلام وقال: قد بلغني ما فرّقْتِ، فأرسلَ إليها بألفِ درهم تستبْقيها، فسلكتْ بها طريق ذلك المال ـ رضي الله عنها وأرضاها[1] ـ.

ومما يُضافُ إلى زهدها في الدُّنيا ما رواه ابن سعد في طبقاته قال: ما تَرَكَتْ زينبُ بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ درهماً ولا ديناراً، كانت تتصدَّقُ بكلِّ ما قدرتْ عليه، وكانت مأوىٰ المساكين.

* * *

وَفَاتُهَا ـ رضي الله عنها ـ:

في سنة عشرين من الهجرة التي توافق (٦٤١) من الميلاد، شعرت أمُّ المؤمنينَ زينب ـ رضوان الله عليها ـ بقربِ اللقاءِ مع اللهِ، وكانت على استعداد دائم لهذا اللقاء المبارك، وقالت حينَ حضرتها الوفاة: إنّي قد أعددتُ كفني، ولعلَّ عمر سيبعث إليَّ بكفنٍ، فإنْ بعثَ بكفن فتصدَّقوا بأحدهما، إن استطعتم إذا دليتموني أنْ تصدَّقوا بحقوي ـ إزاري ـ فافعلوا[2].

---

(١) عن حياة الصحابة (٢/٢٣٥ و ٢٣٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/١٠٩).

* زُهْدٌ في الدُّنيا وفي متاعها، صَدَقَةٌ وبرٌّ في سَكَرات الموتِ، ما أشـدَّ كَـرَمَ أمّ المؤمنين زينب! حقـاً إنّهـا أمُّ المساكين؛ رضي الله عنها وأرضاها.

* وفي اللحظات الأخيرة أوصـتْ أنْ تُحمَلَ على سرير رسول الله ﷺ، وماتتْ ـ رضي الله عنها ـ، فكانت أول نساء النَّبي لحوقاً به.

* ولما وصل نبأ وفاتها إلىٰ سيِّدنا عمر بن الخطاب أمر منادياً فنادى: ألا لا يخرج على زينبَ إلا ذو رحمٍ من أهلها، وكان عمر ـ رضوان الله عليه ـ يطلع إلى شيء يسترها، فقالت أسماءُ بنت عميس ـ رضي الله عنها ـ: قد رأيتُ بالحبشة يجعلونَ نعوشاً لموتاهم، فعملَتْ نعشاً لزينبَ ـ رضي الله عنها ـ وغطّته بثوبٍ، فاستحسنَ هذا سيدنا عمر وقال: نِعْمَ الخباءُ الظَّعينة[1]، وأمر بعد ذلك منادياً فنادى أنِ اخرجوا على أمِّكم، وخرج المسلمونَ يشيّعون أمَّ المؤمنين زينب، وخرج أخوها أبو أحمد بن جحش ـ رضي الله عنه ـ يحملُ سريرَ أختهِ وهو مكفوف ـ أعمىٰ ـ وكان يبكي بكاءً شديداً، فقال له سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا أبا أحمد تنحَّ عن السَّريرِ لا يعنتك النَّاس ـ يشقون عليك ـ وكان يوماً صائفاً شديدَ الحرِّ، وازدحم المسلمون على سريرها، فقال أبـو

(١) عن المعارف لابن قتيبة.

أحمد: يا عمر هذه التي نِلْنَا بها كلَّ خيرٍ، وإنَّ البكاءَ يبردُ حرَّ ما أجد، فقال عمر: الزم الزم[1].

* وذكر الإمام النَّووي ـ رحمه الله ـ أنَّها دُفنتْ بالبقيع، وصلى عليها سيِّدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، ونزل في قبرها أسامةُ بن زيد، ومحمَّدُ بن عبدالله بن جحش، وعبيدُالله بن أبي أحمد بن جحش، ومحمَّـدُ بن طلحة بن عبدالله وهو ابن أختها حمنة، فكلُّهم محارم ـ رضي الله عنها[2] ـ.

* وكانت زينبُ يوم توفيت ابنةَ ثلاث وخمسين سنة، وذكر النَّووي والعسكري ـ رحمهما الله ـ وغيرهما أنَّ زينبَ ـ رضي الله عنها ـ هي أول امرأة جُعِلَ عليها النَّعش[3]، أشارتْ به أسماء بنت عُميس ـ رضي الله عنها ـ.

* * *

(١) عن حياة الصحابة (٢/٥٩٦) وأنساب الأشراف (١/٤٣٦) بتصرف يسير. ومن الجدير والجميل ذكره هنا ما ذكره حماد بن زيد عن عاصم الأحول أن رجلاً من بني أسد فاخر رجلاً فقال الأسدي: هل منكم امرأة زوّجها الله من فوق سبع سماوات؟ يعني زينب بنت جحش. انظر طبقات ابن سعد (٨/١٠٣).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٥ و ٣٤٦).

(٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٦)، والأوائل للعسكري (ص ٢٧٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٧/٢٨٥) وغيرها.

بشَارتُها بالجَنَّةِ:

* قال تعالى: ﴿ . . . . ومَنْ يطعِ الله ورسوله يدْخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلك الفوزُ العظيم﴾ [النساء: ١٣].

* عاشت أمُّ المؤمنينَ زينب بنت جحش - رضي الله عنها - حياةً بعيدةً عن الزُّخارف الدّنيوية، فقد آثرتِ الحياةَ الآخرةَ، وجعلت الدنيا مزرعةً للآخرةِ، وعرفت أنَّ هذه الدُّنيا لا تساوي عند الله جناحَ بعوضة، فانصرفتْ إلى حياة العبادة والتَّبتلِ وخاصة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

* وأمُّ المؤمنين زينب - رضي الله عنها - قد حظيتْ ببشارةِ رسول الله بالجنَّة، وأنها ستكونُ أول زوجاته موتاً بعده، ففي الصَّحيحين واللفظ لمسلم مِنْ طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة أمِّ المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكُن لحاقاً بي أطولكُن يداً»[1]. قالت: فكنَّ يتطاولنَ أيتهنَّ أطول يداً. . . قالت: فكانتْ أطولنا يداً زينب لأنَّها كانت تعملُ بيدها وتتصدَّق.

* مرةً أخرى تروي أمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بشارة زينب أمَّ المؤمنين بالجنَّة وتذكر مناقبها وفضْلَها فتقول:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم (٢٤٥٣).

يرحمُ الله زينـبُ بنت جحش لقد نالتْ في هذه الدُّنيا الشَّرفَ الذي لا يبلغه شرف، إنَّ الله عزَّ وجلَّ زوَّجها نبيّه ﷺ في الدّنيا ونطقَ به القرآن، إنَّ رسول الله ﷺ قال لنا ونحنُ حوله: «أسرعكن بي لحوقاً أطولكن باعاً»، فبشَّرها رسول الله ﷺ بسرعةِ لحوقها به عليه السَّلام وهي زوجته في الجنَّةِ[1].

* وتروي عائشة - رضي الله عنها - اجتمـاع أمَّهاتِ المؤمنينَ لمعرفةِ مَنْ أطول يداً منهن فتقول: فكنَّا إذا اجتمعنا في بيتِ إحدانا بعد رسول الله ﷺ نمدُّ أيدينا في الجدار نتطاولُ، فلم نزلْ نفعلُ ذلك حتى توفيت زينبُ بنت جحش، وكانتِ امرأةً قصيرةً رحمها الله تعالى، ولمْ تكنْ أطولنا، فعرفنا حينئذٍ أنَّ النَّبي ﷺ إنَّما أرادَ بطول اليَدِ الصَّدقة، وكانت زينبَ امرأة صنَاعِ اليدِ فكانت تدبغ وتخرزُ وتتصدَّق به في سبيل اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

* وقبل أنْ نُودِّع سيرة أمِّنا أمّ المؤمنينَ زينب - رضوان الله عليها -، لا بدَّ أنْ نعرفَ أنَّها مِنْ راوياتِ الحديث، روت عن رسـول الله ﷺ أحد عشـر حديثـاً، أخرج لهـا منهـا في الصَّحيحين حديثان متفق عليهما، وذكر الذَّهبي - رحمه الله - أنَّ حديثَها في الكُتُب السِّتة، وقد روىٰ عنها: ابن أخيها

---

(1) انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٥).

(2) انظر في هذا صفة الصفوة (٢/٤٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/٢١٤)، والإصابة (٤/٣٠٧)، والاستيعاب (٤/٣٠٨).

محمد بن عبدالله بن جحش، وأمّ المؤمنين أم حبيبة، وزينب بنت أبي سلمة، وأرسل عنها القاسم بن محمد[1].

* وفي ختام رحلتنا المعطار في حياة أمّنا زينب ـ رضي الله عنها ـ وأرضاها نقرأ قوله تعالى: ﴿ إنَّ المتقينَ في جنَّات ونَهَر * في مقعَدَ صدْقٍ عندَ مليكٍ مقتدر ﴾ [القمر: ٥٤ و ٥٥].

* * *

والحمد لله رب العالمين

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٢١٢ و ٢١٨).

قائمة بأهم المراجع في هذا البحث[1]

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ تفسير الماوردي.

٣ ـ تفسير القرطبي.

٤ ـ تفسير ابن كثير.

٥ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي.

٦ ـ تفسير القاسمي.

٧ ـ أسباب النزول، للواحدي.

٨ ـ أسباب النزول، عبد الفتاح القاضي.

٩ ـ صحيح البخاري.

١٠ ـ صحيح مسلم.

١١ ـ جامع الأصول، لابن الأثير.

١٢ ـ الموطأ، الإمام مالك.

١٣ ـ سنن أبي داود.

١٤ ـ فضائل الصحابة، الإمام أحمد.

(١) ملاحظة: هناك مراجع وردت في الحواشي، واكتفينا هنا بذكر أهمها.

١٥ ـ مجمع الزوائد، الهيثمي.
١٦ ـ تهذيب الأسماء واللغات، النووي.
١٧ ـ تهذيب التهذيب، ابن حجر.
١٨ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي.
١٩ ـ أسد الغابة، ابن الأثير.
٢٠ ـ الإصابة، ابن حجر.
٢١ ـ الاستيعاب، ابن عبد البر.
٢٢ ـ الاستبصار، ابن قدامة المقدسي.
٢٣ ـ حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني.
٢٤ ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد.
٢٥ ـ صفة الصفوة، ابن الجوزي.
٢٦ ـ المجتبى من المجتنى، ابن الجوزي.
٢٧ ـ أعلام النساء، عمر رضا كحالة.
٢٨ ـ الرياض النضرة، المحب الطبري.
٢٩ ـ شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي.
٣٠ ـ منح المدح، ابن سيد الناس.
٣١ ـ الأعلام، الزركلي.
٣٢ ـ وفيات الأعيان، ابن خلكان.
٣٣ ـ رجال مبشرون بالجنة، أحمد خليل جمعة.
٣٤ ـ الأوائل، العسكري.
٣٥ ـ تاريخ الإسلام، الذهبي.
٣٦ ـ تاريخ الأمم والملوك، الطبري.
٣٧ ـ البداية والنهاية، ابن كثير.
٣٨ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

٣٩ ـ العبر، الذهبي.
٤٠ ـ النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي.
٤١ ـ وفاء الوفا، السمهودي.
٤٢ ـ شفاء الغرام، الفاسي.
٤٣ ـ السيرة النبوية، ابن هشام.
٤٤ ـ عيون الأثر، ابن سيد الناس.
٤٥ ـ السيرة الحلبية، ابن برهان الحلبي.
٤٦ ـ الفصول في سيرة الرسول، ابن كثير.
٤٧ ـ جوامع السيرة النبوية، ابن حزم.
٤٨ ـ الروض الأنف، السهيلي.
٤٩ ـ دلائل النبوة، الأصبهاني.
٥٠ ـ دلائل النبوة، البيهقي.
٥١ ـ فقه السيرة، البوطي.
٥٢ ـ حجة الله على العالمين، النبهاني.
٥٣ ـ حياة الصحابة، الكاندهلوي.
٥٤ ـ فتوح البلدان، البلاذري.
٥٥ ـ السير والمغازي، ابن إسحاق.
٥٦ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر.
٥٧ ـ المغازي النبوية، الزهري.
٥٨ ـ المغازي، الواقدي.
٥٩ ـ أنساب الأشراف، البلاذري.
٦٠ ـ المعارف، ابن قتيبة.
٦١ ـ المحاسن المجتمعة، الصفوري.
٦٢ ـ المنمق في أخبار قريش، ابن حبيب.

٦٣ ـ نسب قريش، مصعب الزبيري.
٦٤ ـ الاشتقاق، ابن دريد.
٦٥ ـ الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، الخطيب البغدادي.
٦٦ ـ معجم البلدان، الحموي.
٦٧ ـ القاموس المحيط، الفيروزابادي.
٦٨ ـ تاج العروس، الزبيدي.

فهرس الموضوعات